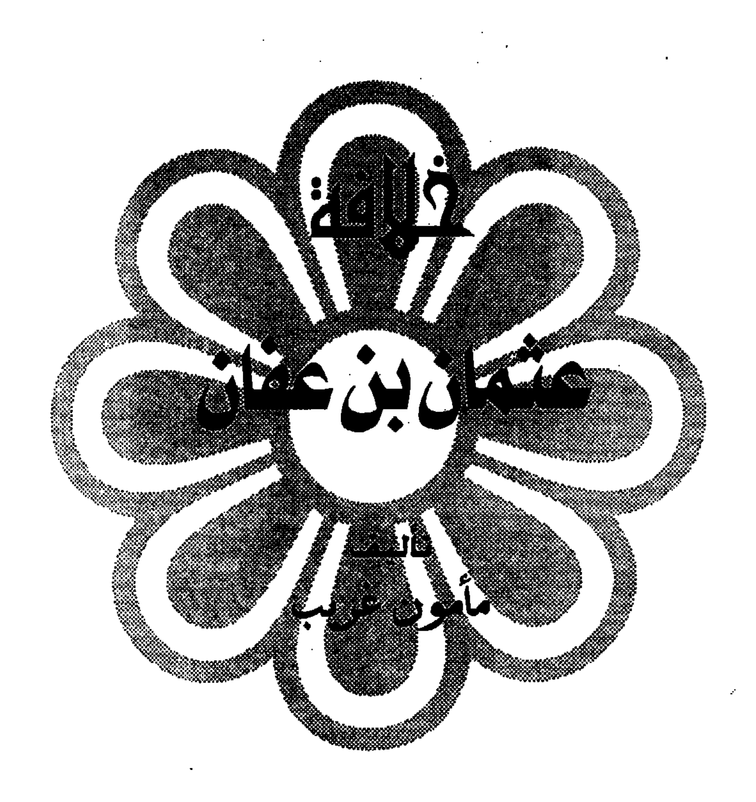
خلافة

عثمان بن عفان

مأمون غريب







مركز الكتاب للنشر



مصر الجديدة : ٢١ شارع الخليفة المأمون - القاهرة

ت: ٢٤٩٠٨٢٠٣ - ٢٩٠٦٢٥٠ - فاكس: ٢٩٠٦٢٥٠

بسم الله الرحمن الرحيم



مُقَدِّمَة

كان عثمان بن عفان رضى الله عنه من أشد الناس إيماناً وحباً للرسالة والرسول، وكان من أوائل السابقين للإسلام عندما دعاه أبو بكر الصديق للإيمان، وقد تزوج بعد إسلامه برقية بنت الرسول عليه الصلاة والسلام، وقد شهد مع الرسول كل غزواته إلا غزوة بدر، لأن زوجته كانت مريضة وكان يقوم على رعايتها، وقد لقب بذى النورين لأنه تزوج بعد وفاة رقية بابنة الرسول أم كلثوم . . وقد قال له الرسول عليه الصلاة والسلام:

« لو أن لنا ثالثة لزوجناك ».

وكان شديد السخاء، بذل من ماله الكثير، ويكفى أنه جهز جيش العسرة بألف بعير وخمسين فرساً، وما أكثر ما قدم عثمان رضى اللّه عنه للدعوة من مال، وقد روى عن ابن عباس كما روى ذلك ابن الأثير فى (أسد الغابة) أن قوله تعالى:

﴿ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ ﴾ [الحجر : ٤٧]

نزلت فى عشرة: أبى بكر، وعمر، وعثمان، وعلىٍّ، وطلحة، والزبير، وسعد، وعبدالرحمن بن عوف، وسعيد بن زيد، وعبدالله ابن مسعود.

وكان عثمان أيضاً من كتاب الوحى.

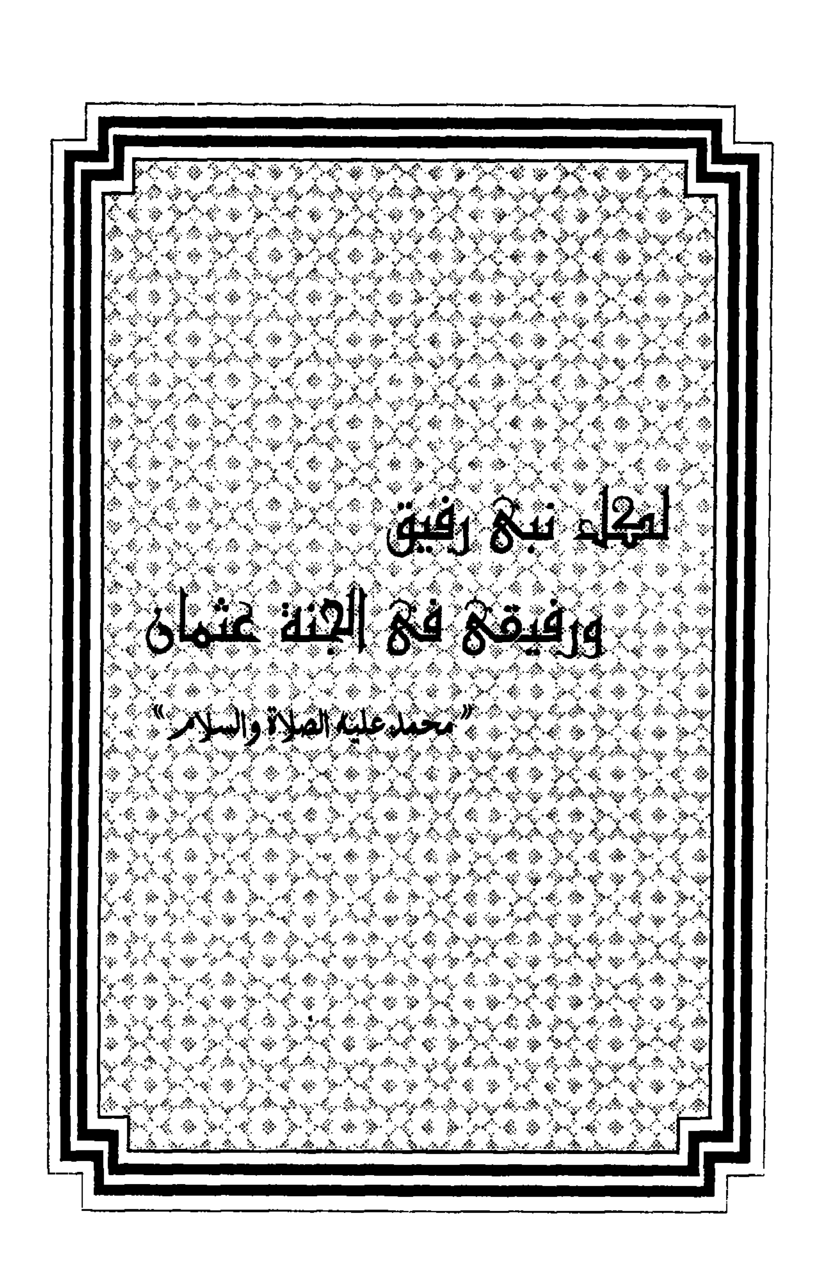
وكان لعثمان رضى الله عنه الفضل فى تثبيت دعائم الإسلام فى البلاد التى فتحت فى عهد الصديق وعمر كما كان له الفضل فى مد ضوء الإسلام إلى أرمينيا والقوقاز وغير ذلك من الأماكن التى امتد إليها الفتح الإسلامى، ولولا الفتنة التى حدثت وأودت بحياة ثالث الخلفاء الراشدين، لانطلق الإسلام إلى أفاق أرحب، ولكن هذه الفتنة التى اندلعت أوقفت الزحف الإسلامى، ولم تكن هذه الفتنة يمكن أن تحدث فى عهد سلفه العظيم عمر بن الخطاب لشدته ومهابته . . وقدرته على كبح جماح من يحاول أن يشق عصا الطاعة، ورفضه أن يهاجر أعلام قريش من الخروج إلى البلدان المفتوحة بإذن وأجل، وكان يخشى أن يفتتن بهم الناس، وفعل عثمان عكس ذلك تماماً، ثم كان ما كان بعد ذلك من العوامل التى أدت إلى الفتنة والتى انتهت باستشهاد عثمان رضى الله عنه لثمانى عشرة ليلة خلت من ذى الحجة سنة خمس وثلاثين، يوم الجمعة . .

وكانت مدة خلافته اثنتا عشرة سنة إلا اثنى عشر يوماً، وقد اختلف المؤرخون والرواة عن سنه رضى الله عنه يوم غادر دنيانا إلى رحاب ربه؛ فمن قائل كان فى الخامسة والسبعين من العمر، وقال البعض كان فى التسعين من عمره.

مهما يكن من أمر . . فإن الحديث عن خلافة عثمان رضى الله عنه هو حديث عن فترة هامة من فترات التاريخ الإسلامى، يجب أن نتوقف عنده كثيراً لما كان له من تأثير خطير على مسيرة التاريخ الإسلامى والفكر الإسلامى عبر مختلف العصور . .

مأمون غريب




لكل نبي رفيق
ورفيقي في الجنة عثمان
"محمد عليه الصلاة والسلام"



كان كل شئ فى مكة هادئاً . .

الحياة طبيعية . .

لا شئ غير عادى يمكن أن يحرك الناس ويلفت أنظارهم . .

الذين يتاجرون يتاجرون . .

والذين يتعاملون بالربا يتعاملون بالربا . .

والذين يذهبون إلى بيت اللَّه الحرام يطوفون به . . ويعبدون الأصنام . . يذهبون كما تعودا . . ثم يدور الحديث العادى . . حول قصيدة من الشعر فى مدح فلان أو ذم فلان . . لا شئ جديد على جو مكة . . حتى هؤلاء المترددون على صاحبات الرايات الحمر . . وهى أمكنة الدعارة فى ذلك الزمان يروحون ويجيئون . . حياة عادية مألوفة . . ألفها أهل مكة . . وربما يقضون أوقاتهم يجترون الأحداث التى مرت فى أنحاء الجزيرة العربية عبر السنين الماضية . . أو حادثة الفيل . . يوم جاء الأحباش يحاولون هدم بيت اللَّه الحرام . . ووقف عبدالمطلب يدعو اللَّه أن ينجو بيته . . بعد أن طلب من أبرهة الحبشى أن يرد له إبله وللبيت رب يحميه . . ونزلت من السماء الطير الأبابيل التى قضت على جيش أبرهة . . وعاد لمكة هدوءها . . وعاد للبيت الحرام قداسته . . كل شئ عادى يسير سيره الطبيعى .

وقد تناهى إلى آذان الجميع زواج هذا من هذه . . أو غير ذلك من الأخبار التى تحفل بها كل مجتمعات بسيطة شبه مغلقة . . وربما

يذهب خيالهم بعيداً فيقص تجارهم الذين ذهبوا إلى الشام فى رحلة الصيف . . كيف يعيش الناس فى الشام تحت سيطرة الرومان . . وكيف يعيش الناس فى العراق تحت سيطرة الفرس . . والمعارك الهائلة التى كانت تدور بين الدولتين الكبيرتين . . وكيف أن لا أحد له قِبَل بهاتين القوتين الرهيبتين . . التى يمتد سلطانهما إمتداداً رهيباً فى العالم المعروف . . فشمل مصر والشام والعراق والشمال الأفريقى . . ولولا جدب الصحراء فى شبه الجزيرة العربية لأصبحت هى الأخرى تحت سطوة الدولتين . . ربما . . كان التفكير والحوار يدور حول هذه المسائل . . ولا شئ بعد ذلك . . سوى التردد على سوق عكاظ . . يتاجرون . . ويسمعون الأشعار . . ويرون ألواناً من الفروسية المتمثلة فى مصارعة الشباب بعضهم بعضاً . .

أيام رتيبة . .

وليال أكثر رتابة !؟

ولكن ما كان يخطر على البال . . أنه سوف يحدث حدث هائل سوف تصبح له آثاره البعيدة المدى لا فى مكة وحدها . . ولا فى شبه الجزيرة العربية وحدها . . بل فى العالم كله .

كان أبعد شئ عن الخيال أن يخرج من مكة هذا النور الذى سوف يبدد ظلمات بالغة القتامة . . وأن يلوى عنق التاريخ . . ويغير مساره ويعيد ترتيب الفكر الإنسانى على أسس واعية

مستنيرة . . وأن هذا الأثر سوف يمتد عبر الأجيال . . ويظل نور هداية للناس إلى يوم يبعثون! .

ولكن ما هو هذا الحدث الخطير الذى سوف يحدث هذا الدوى الهائل فى القرن السادس الميلادى . . وما بعده من قرون؟!

وما الذى يمكن أن يحدث فى مكة فتهتز له الدنيا كلها ؟!

لقد استيقظ الناس ذات صباح فإذا همس يدور بين الناس بأن محمداً بن عبداللَّه يقول أن الوحى يأتيه من السماء . . وأنه مبعوث اللَّه إلى الأرض ليهديهم إلى الصراط المستقيم . . !

ولم يكترث الناس أول الأمر بهذا الحديث . . أو عند سماعهم هذا الخبر . . فما أكثر الذين شهدتهم البلاد يتحدثون عن مثل هذه الأخبار . . وإن لم يدع أحد منهم النبوة . .

وهناك من تبع ملة إبراهيم الخليل . .

وهناك اليهود الذين حرفوا الكلم عن مواضعه . .

ولكن لا أحد من هؤلاء ترك أثراً فى حياة الناس، لأن العرب كانت تعتقد بوجود اللَّه رغم وثنيتهم ، وكانوا يعتقدون أن هذه الأصنام تقربهم من اللَّه . .

﴿ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلاَّ لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ ﴾ [الزمر : ٣]

﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ ﴾ [لقمان: ٢٥]

ولكنهم ما كانوا يعتقدون أنه من الممكن أن تعطى السماء أخبارها لأحد ، أو توحى إلى أحد من الناس.

وهذه الأصنام وتقديسها قد ترجع إلى تقديسهم الكعبة، فكانوا عندما يسافرون يضعون حجراً ويطوفون حوله تَبرّكاً أينما ذهبوا كما يقول ابن إسحق فى تاريخه . . وقد ترجع كما يقول ابن كثير فى تاريخه أن ابن هشام قال:

« حدثنى أهل العلم أن عمرو بن لحى خرج من مكة إلى الشام. . فلما قدم مآب من أرض البلقاء ، وبها يومئذ العماليق رآهم يعبدون الأصنام فقال لهم: ما هذه الأصنام التى أراكم تعبدون. . قالوا له: هذه أصنام نعبدها فتمطرنا ونستنصر بها فتنصرنا . . فقال لهم: ألا تعطون منها صنما، فأسير به إلى أرض العرب فيعبدونه، فأعطوه صنما يقال له هبل، فقدم به إلى مكة ونصبه وأمر الناس بعبادته . . ».

مهما تكن الأسباب . . فقد نسى الناس رحيق الدعوة التى جاء بها إبراهيم الخليل وإسماعيل . . وامتلأت الكعبة بالأصنام . . وأشركوا بالله إذا جعلوا له شركاء من حجارة صماء بكماء عمياء. . لا تنفع ولا تضر . . وامتلأت حياة الناس بالخرافات والأساطير. . وملئوا فراغ حياتهم بهذه الأوهام التى تخيلوها تنفع وتضر. .

وساءت الحياة الاجتماعية . . فأصبح الغنى يستعبد الفقير . . والربا يقصم ظهور الناس . . والفقير يقتل بناته خوف الفقر . . والنعرات القبلية والتفاخر بالمال والأنساب عماد حياة الناس فى هذا الوسـط .

وذات يوم من رمضان جاء الوحى من السماء ، يبشر محمد بالنبوة . . والدعوة إلى الإسلام . .

وما عرف الناس عن محمد بن عبدالله طوال أربعين عاماً مضت إلا كل خير . . فهو الأمين . . وهو العاقل . . وهو من أشراف قريش . . لم يسب أحداً . . ولم ينهش سيرة أحد . . ولا شرب الخمر . . ولا عرف الميسر . . ولا سجد لصنم قط . . إنه الأمين . . الذى استطاع بذكائه وشخصيته الفريدة أن يوقف نزيف الدم الذى كان يمكن أن يحدث منذ خمس سنوات . . عندما أعادت مكة بناء الكعبة . . واختلفوا . . لمن يكون شرف وضع الحجر الأسود فى مكانه . . واقترح أحدهم أن يحكموا أول داخل لبيت الله الحرام . . وكان الأمين . . فى الخامسة والثلاثين من عمره . . نقياً . . صافى الروح . . طاهر الوجدان . . وصاحوا . . إنه الأمين . . وتقدم الأمين . . ووضع الحجر الأسود فى ثوب . . وطلب من كل قبيلة أن يرفع من يمثلها أحد أطراف الثوب . . وهكذا اشتركت كل القبائل فى رفع الحجر الأسود . . وتقدم هو فأخذ الحجر الأسود ووضعه فى مكانه وانتهت الأزمة .

لا أحد يسمع عن محمد إلا كل خير . . وإلا أنه عمل طوال

حياته فكان يأكل من عمل يده . . وعندما تاجر فى مال السيدة خديجة . . ربحت . . وتزوجته . . وكان يخرج كل عام إلى غا ر حراء . . بعيداً عن الناس . . مفكراً ومتدبراً فى الكون . . حتى شفيت روحه . . فرأى جبريل عليه السلام . . وكانت أول آيات القرآ ن الكريم :

﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ (١) خَلَقَ الإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ (٢) اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ (٣) الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ (٤) عَلَّمَ الإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ (٥) ﴾ [العلق : ٣]

إنها رسالة الإسلام . . جاءت على فترة من الرسل . .

﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَىٰ فَتْرَةٍ مِّنَ الرُّسُلِ أَن تَقُولُوا مَا جَاءَنَا مِن بَشِيرٍ وَلا نَذِيرٍ فَقَدْ جَاءَكُم بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١٩) ﴾ [المائدة : ١٩]

لقد كان خبر نزول الوحى على محمد محصوراً فى أول أمره فى آل بيته . . علمت به أول من علمت زوجته الطاهرة السيدة خديجة . . وأسلمت واستشارت ورقة بن نوفل . . الذى أخبرها أن ما رآه محمد هو الناموس الذى أنزل على موسى . . ثم . . بدأت الدعوة . .

﴿ يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ (١) قُمْ فَأَنذِرْ (٢) وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ (٣) وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ (٤) وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ (٥) وَلا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ (٦) وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ (٧) ﴾ [المدثر : ١-٧]

وهذه الآيات دعوة للطهر والنقاء . . والوحدانية . . والإخلاص للَّه وحده والإيمان به وباليوم الآخر . .

ثم أخذت الدعوة خطوة أخرى . . فقد أمره اللَّه أن ينشر الدعوة بين أقرب الناس إليه . .

﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾ وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢١٥﴾ ﴾ [الشعراء : ٢١٤-٢١٥]

لقد بدأت الدعوة هادئة . . لا يعلمها إلا الأقربون . . وقد تسامع بها البعض . . ولم يعيروها أول الأمر التفاتاً كبيراً . . وأسلم الأقربون: خديجة، وعليّ، وزيد بن شرحبيل . . ومعروف أن زيداً كان قد اختطفه البعض وهو فى الثامنة من عمره . . وكان من قبيلة بنى كلب . . وبيع فى أسواق الرقيق . . ثم آل إلى خديجة . . وقد عثر عليه والده قبل البعثة . . ولكنه اختار أن يظل بجوار محمد بن عبداللَّه . . فقد خيره النبى عليه الصلاة والسلام بين أن يظل معه أو يذهب مع والده، فاختار جوار النبى .. . ومن هنا أحبه النبى حباً عظيماً حتى أنه تبناه . . وظل كذلك حتى نهى اللَّه عن التبنى فيما بعد.

﴿ ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ اللَّهِ فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَمَوَالِيكُمْ ﴾ [الأحزاب : ٥]

وابتدأ النبى بأقرب الناس إليه . . وأسلم أبو بكر الصديق رضى

الله عنه . . فهو صديق النبى منذ الطفولة . . وعن طريق أبى بكر أسلم أصدقاء أبى بكر ومنهم عثمان بن عفان وطلحة بن عبيدالله . . ثم سرت الدعوة بعد ذلك عن طريق بيت النبوة فأسلم الزبير وصفية . . و . . سارت الدعوة . . وأخذت طريقها إلى الانتشار . . وأفاقت مكة لتجد أن هذه الدعوة التى تهدى الناس إلى صراط مستقيم . . وإلى البعد عن الفحشاء والمنكر . . تقلب ميزان الحياة الاجتماعية فى قريش . . ومن هنا أفاقت مكة وحاربت الدعوة.

حاربها الذين ينتظرون الزعامة . . ومعنى انتشار دعوة الإسلام أن الزعامة - فى رأيهم - أصبحت لبنى هاشم دون بنى أمية وغيرها من بطون مكة الذين يتلمسون لأنفسهم الزعامة والجاه . .

وحاربهم الذين وجدوا أن الإسلام يسوى بين السادة والعبيد . . فلا فضل لأحد على آخر إلا بالتقوى . .

وحاربها عبيد المعتقدات القديمة . . وشعارهم: (هذا ما وجدنا عليه آباؤنا).

وحاربها الحاقدون والحاسدون . . و . . ما كانت هناك قوة فى الأرض يمكن أن تطفئ نور الله . . فالله متم نوره ولو كره المشركون.

ومن هنا أخذت الدعوة مسيرتها لا تحفل بالمعوقات.

وكان معتنقو الدين من القوة بمكان.. فالإيمان نابع من أعماقهم.. وهناك دوافع كثيرة لأن يعيشوا للإسلام وبالإسلام أو الاستشهاد.. فقد شهدوا وذاقوا لذة الإيمان.. فكان من المستحيل عليهم أن يثنيهم وعد أو وعيد.. أو تعذيب أو تنكيل أن يعودوا إلى عبادة الأوثان.. أو أن يعودوا إلى أوضاع شاخت وتهرأت وما عادت تقبلها الأفئدة والعقول.

وهكذا أصبحت مكة ذات يوم.. فإذا بهذا الحدث الهائل يصبح شغل الناس الشاغل، ولم تعرف مكة أنها بالإسلام وبمحمد عليه الصلاة والسلام سوف تدخل التاريخ من أعظم أبوابه..

دخل عثمان بن عفان الإسلام على يد صديقه أبى بكر الصديق.. وآمن به إيمانا عميقاً.. وكان عثمان بن عفان قد ولد فى الطائف.. وكان ذلك بعد عام الفيل بست سنوات.. وهو على أصح الأقوال عام ٥٧٦ ميلادية..

وكان عثمان جميل الوجه.. وإن كان على وجهه بعض آثار الجدرى.. متوسط الطول ذات شعر كثيف متموج ينسدل إلى ما تحت أذنيه.. وكان كبير اللحية طويل الذراعين.. وكان شديد الحياء.. يحبه الناس ويحبونه لتواضعه وحيائه الشديد.. وإن كان من أصل أموى.. فأمة هاشمية.. فهو عثمان بن عفان بن أبى العاص بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف، أى أنه يجتمع مع النبى عليه الصلاة والسلام فى عبد مناف.. وأمه أروى بنت كريز

ابن ربيعة بن حبيب بن عبد شمس بن عبدمناف، وأم أروى البيضاء بنت عبدالمطلب عمة الرسول عليه الصلاة والسلام.

وقد تزوج عثمان برقية بنت النبى عليه الصلاة والسلام التى كانت قد تزوجت عتبه بن أبى لهب، وكان عتيبة بن أبى لهب قد تزوج أختها أم كلثوم، وبعد الإسلام طلب أبو لهب من ولديه تطليقهما ، وتزوج عثمان برقية، وهاجر بها إلى الحبشة.. وفى الحبشة أنجبت من عثمان (عبدالله) الذى مات فى السادسة من عمره، وصلى عليه جده محمد عليه الصلاة والسلام..

وكان لعثمان رضى الله عنه مكانة ممتازة بين الناس .. فقد أحبه الناس فى الجاهلية لتواضعه وسخائه .. وأحبه الناس فى الإسلام لتلك الصفات الحميدة التى اتسم بها من حب لفعل الخير .. ومن حب لله ولرسوله .. فقد كان لين الجناح .. متواضعاً .. سخياً. كأنبل ما يكون السخاء، ثم كان صاحب حياء شديد .. حتى أنه ورد عن عائشة رضى الله عنها، وكما روى ذلك مسلم فى صحيحه:

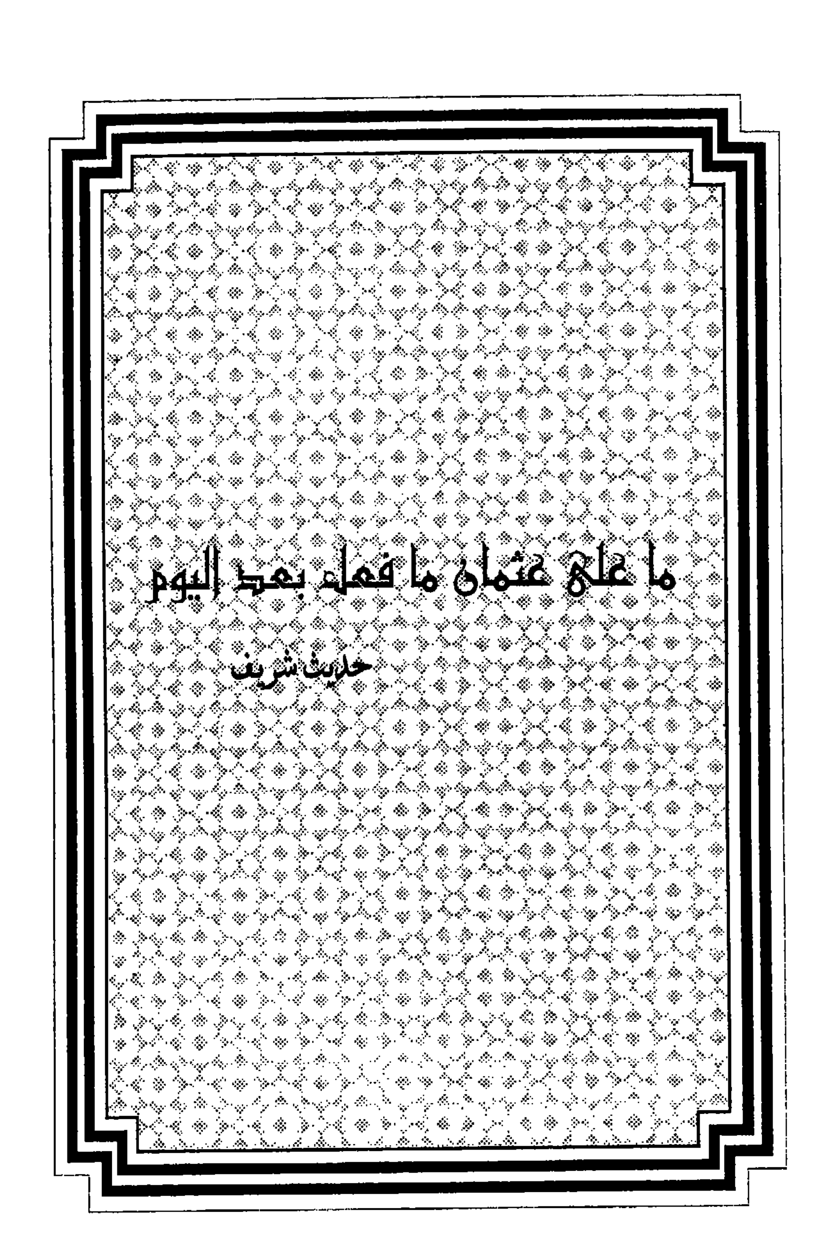
كان رسول الله ﷺ مضجعاً فى بيتى كاشفاً عن فخذيه أو ساقيه.. فاستأذن أبو بكر فأذن له وهو على ذلك الحال .. فتحدث.. ثم استأذن عمر .. فأذن له وهو كذلك فتحدث .. ثم

استأذن عثمان فجلس رسول اللّه ﷺ ، وسوى ثيابه فدخل فتحدث فلما خرج قالت عائشة : دخل أبو بكر فلم تهش له ولم تباله، ثم دخل عمر فلم تهش له ولم تباله، ثم دخل عثمان فجلست وسويت ثيابك؟

فقال : « ألا أستيحى من رجل تستحى منه الملائكة» . .

* * *




ما على عثمان ما فعل بعد اليوم
حديث شريف



كان الإسلام كل يوم يزداد أنصاره . . وكلما تعرض المسلمون للإيذاء كلما زاد إيمانهم بالدين . . فهم يرون فيه من القيم والطهر والنظافة والدعوة إلى الشرف والأمانة وتقديس كرامة الإنسان . . ما يجعلهم يزدادون به تمسكاً . . وهم يرون النبى عليه الصلاة والسلام نفسه أعظم قدوة . . وأعظم شخصية . . وأنبل إنسان . . أنه يقابل الجميع بوجه بشوش . . حتى ليخيل لكل مسلم أنه الأثير عنده . . القريب إلى قلبه . .

وسارت الأحداث . . ودارت الأيام . . وهاجر النبى عليه الصلاة والسلام إلى يثرب . . حيث أصبح للإسلام دولة . . وأصبح للمسلمين شوكة قوية . . وابتدأ التحدى بين مكة والمدينة إلى الذروة . . وكانت معركة بدر أول المعارك الكبرى فى الإسلام . . حيث واجهت القلة المؤمنة الكثرة الكافرة . . وانتصر الإيمان على الكفر . . يومها كان عثمان بن عفان فى المدينة حيث كان يلازم زوجته المريضة . . وما كاد يصل إليه نبأ الانتصار الرائع الذى حققه المسلمون . . حتى كانت زوجته رقية قد انتقلت إلى رحاب اللّه . . وكان حزن عثمان رضى اللّه عنه عليها عظيماً . . فقد كان يتمنى أن يظل خيط المصاهرة ممدوداً مع النبى عليه الصلاة والسلام . . وبعدها عرض عليه عمر بن الخطاب أن يزوجه من ابنته حفصة . . ولكنه لم يرض بذلك . . حتى أن عُمر بن الخطاب شكا

للرسول معاتباً موقف عثمان . . فقال النبى عليه الصلاة والسلام لعمر:

« وسيزوج الله ابنتك خيراً من عثمان ، ويزوج عثمان خيراً من ابنتك » . .

فتزوج النبى عليه الصلاة والسلام حفصة، وتزوج عثمان رضى اللّه عنه من ابنة الرسول أم كلثوم . . ومن هنا أطلق عليه لقب (ذو النورين) لأنه تزوج من بنتى رسول اللّه ﷺ .

ويروى عن سعيد بن المسيب قوله:

– لما ماتت رقية جزع عثمان وقال : يا رسول اللّه . . انقطع صهرى منك . . فقال له النبى ﷺ : « إن صهرك منى لا ينقطع . . وقد أمرنى جبريل أن أزوجك أختها بأمر اللّه . . ولو كن يا عثمان عشرة لزوجتكهن واحدة بعد واحدة ».

كان عثمان رضى اللّه عنه كريماً . . سخياً . . ورث عن والده أموالاً كثيرة .. فكان من أغنى أغنياء مكة . . ولكن ماله لم يكن ملكاً له . . كان ملكاً للمسلمين.

وهذا السخاء والكرم الذى اشتهر به عثمان كان مرادفاً له طوال حياته . . فى الجاهلية وفى الإسلام ... حتى أن مكة كانت تحبه حباً كثيراً . . لا لأنه من أثرياء مكة . . ولا لأنه من بنى أمية المعروفة بعزها وجاهها ... ولكن لشخصيته الكريمة المعطاءة . . حتى أن نساء قريش كن يداعبن أطفالهن بقولهن :

أحبك والرحمن . . حب قريش عثمان .

ولنضرب بعض الأمثلة لنعرف أى شخص كان عثمان فى سخائه وحبه للّه ولرسوله وللمؤمنين . . إنه جهز جيش العسرة من ماله الخاص . . فقدم للنبى عليه الصلاة والسلام ألف دينار . . بجانب تسعمائة وخمسين بعيراً وخمسين فرساً . . حتى قال له النبى ﷺ:

« ما على عثمان ما فعل بعد اليوم » . .

واشترى بئر رومة بعشرين ألف درهم . . وكانت هذه البئر يملكها أحد اليهود ويبيع ماءها للناس . . وبعد أن اشتراه عثمان وهبه للمؤمنين . . يشربون منه ويأخذون ما يشاؤون من الماء بلا مقابل . . واشترى عثمان أيضاً أرضاً ليوسع بها مسجد الرسول عليه الصلاة والسلام حتى يمكن أن يستوعب المصلين وقد تكاثر عددهم فى المدينة . . بل إن التاريخ ليذكر لنا كيف أصاب القحط حياة الناس فى خلافة أبى بكر . . واشتكى الناس للخليفة سوء الحال . . فطلب منهم الصبر . . وجاءت قافلة ضخمة من الشام يملكها عثمان بن عفان . . كانت القافلة من الضخامة بحيث قدرها المؤرخون بألف بعير تحمل البر والزيت والزبيب، واتجهت القافلة إلي بيت عثمان بن عفان . . وسمع التجار بخبر القافلة فذهبوا ليشتروها . . وأخذوا يرفعون فى الأسعار . . وعثمان رضى اللّه عنه صامت . . يرى جموع التجار يسيل لعابهم وهم يرون هذه البضاعة . . وكل منهم يتمنى أن يشتريها . . وهو يعلم أنه سيكسب مكاسب هائلة من هذه الصفقة . .

ولكن عثمان قال للتجار :

- إن اللّه أعطانى بكل درهم عشرة . . أعندكم زيادة . .

قالوا : لا .

قال :

- فإنى أشهد اللّه أنى جعلت ما حملت البعير صدقة للّه على المساكين وفقراء المساكين .

هل يمكن أن نرى إنساناً يحمل فى قلبه كل العطف والرحمة كما يحملها قلب هذا الإنسان العظيم عثمان بن عفان .

شخصية لا يختلف عليها أحد ولا على نقاء عنصرها . . فهى تفيض رقة ورحمة وحناناً . . بل أن النبى عليه الصلاة والسلام صعد ذات يوم جبل أحد ومعه أبو بكر وعمر وعثمان . . . فارتج الجبل كما يروى لنا صحيح البخارى . . فقال الرسول عليه الصلاة والسلام :

« أثبت أحد . . فإنما عليك نبى وصديق وشهيدان » .

ومرة أخرى كان النبى ومعه أبو بكر وعمر وعثمان على ثبير مكة . . وهذا ما قاله عثمان رضى اللّه عنه للذين يحاصرونه فى بيته عندما اندلعت الفتنة . . وأرادوا قتله . . قال لهم عثمان يذكرهم بمنزلته عند الرسول وفى الإسلام :

- أنشدكم اللّه والإسلام هل تعلمون أن رسول الله صلى اللّه

عليه وسلم كان على ثبير مكة ومعه أبو بكر وعمر رضى اللّه عنهما وأنا فتحرك الجبل حتى تساقطت حجارته بالحضيض فركضه برجله وقال:

« أسكن ثبير فإنما عليك نبى وصديق وشهيدان».

قالوا : نعم.

قال عثمان : « اللّه أكبر . . أشهدوا رب الكعبة أنى شهيد . . ثلاثاً».

وما أكثر الصور الناصعة التى يراها دارس سيرة عثمان بن عفان أثناء حياة رسول اللّه . . وفى عهد أبى بكر وعمر . . وفى خلافته عند الحديث عنها.

إننا نريد هنا أيضاً أن نذكر كيف بشره رسول اللّه ﷺ بالجنة. . حتى تعرف أى الرجال كان عثمان . . ونقف عند هذا الحديث لأبى موسى الأشعرى الذى رواه مسلم. .

أنه توضأ فى بيته ثم خرج فقال: لألزمن رسول اللّه ﷺ ولأكونن معه يومى هذا . . فجاء المسجد فسأل عن النبى ﷺ فقالوا: خرج وجهه هنا (توجه) فخرجت على أثره أسأل عنه حتى دخل بئر أريس (بستان بالمدينة قرب قباء) فجلست عند الباب، وبابها من جريد . . حتى قضى رسول اللّه ﷺ حاجته وتوضأ، فقمت إليه فإذا هو قد جلس على بئر أريس وتوسط قفها (حافة

البئر) وكشف عن ساقيه ودلاهما فى البئر . . فسلمت عليه ثم انصرفت فجلست عند الباب . .

فقلت : لأكونن بواب رسول اللّه ﷺ اليوم . . فجاء أبو بكر فدفع الباب فقلت : من هذا؟

فقال : أبو بكر.

فقلت : على رسلك.

ثم ذهبت فقلت : يا رسول اللّه هذا أبو بكر يستأذن . .

فقال : ائذن له وبشره بالجنة . .

فأقبلت حتى قلت لأبى بكر : ادخل ورسوله اللّه ﷺ يبشرك بالجنة . .

فدخل أبو بكر فجلس عن يمين رسول الله ﷺ معه فى القف ودلى رجليه فى البئر كما صنع النبى ﷺ وكشف عن ساقيه . .

ثم رجعت فجلست وقد تركت أخى يتوضأ ويلحقنى . .

فقلت: إن يرد اللّه بفلان خيراً -يقصد أخاه- يات به . . فإذا إنسان يحرك الباب . .

فقلت : من هذا ؟

فقال : عمر بن الخطاب . .

فقلت : على رسلك . . ثم جئت إلى رسول اللّه ﷺ وقلت: هذا عمر يستأذن . .

فقال : «ائذن له وبشره بالجنة» . . فجئت عمر فقلت:

أذن ويبشرك رسول اللّه ﷺ بالجنة . . فدخل فجلس مع رسول اللّه ﷺ فى القف عن يساره ، ودلى رجليه فى البئر، ثم رجعت فجلست فقلت: إن يردن اللّه بفلان خيراً -يقصد أخاه- يأت به. فجاء إنسان فحرك الباب . . فقلت: من هذا؟. فقال: عثمان بن عفان . . فقلت: على رسلك. . وجئت النبى ﷺ فأخبرته فقال: «ائذن له وبشره بالجنة مع بلوى تصيبه». .

فجئت فقلت:

ادخل ويبشرك رسول اللّه ﷺ بالجنة مع بلوى تصيبك .

وفى رواية أخرى . . فقال: اللهم صبراً . . فدخل فوجد القف قد ملىء فجلس وجاههم من الشق الأخر.

فعثمان رضى اللّه عنه كان قريباً من رسول اللّه . . وأحد المبشرين بالجنة . . والنبى عليه الصلاة والسلام تنبأ باستشهاده هو وعمر بن الخطاب . . يتضح ذلك من الحديث الذى أوردناه عندما كانوا على جبل أحد . . وارتج الجبل . . فقال النبى عليه الصلاة والسلام . . «أثبت أحد فانما عليك نبى وصديق وشهيدان».

وروى عن النبى عليه الصلاة والسلام عن المبشرين بالجنة قوله:

« أبو بكر فى الجنة . . وعمر فى الجنة . . وعثمان فى الجنة . . وعلىٌ فى الجنة . . وطلحة فى الجنة . . والزبير فى الجنة . . وعبد

الرحمن بن عوف في الجنة . . وسعد في الجنة . . والآخر لو شئت سميته ثم سمى نفسه».

ولقد حاول البعض مع ذلك أن يعطى صورة ليست حقيقية عن عثمان رضى اللّه عنه . . فقالوا إنه لم يحضر بدراً . . وأنه هرب يوم أحد . . كما أنه لم يبايع النبى عليه الصلاة والسلام بيعة الرضوان. . عندما أراد النبى أن يذهب إلى مكة معتمراً . . فمنعته مكة . . والذين قالوا ذلك تجاهلوا حقيقة هامة . . وهى أن النبى عليه الصلاة والسلام سمح لعثمان أن يظل بجوار زوجته المريضة . . رقية . . وهى بنت رسول اللّه . . وعندما جاءت أنباء النصر . . كانت زوجته الطاهرة قد انتقلت إلى رحاب اللّه، وواسى النبى عثمان. . كما مسح الدموع من عين فاطمة ابنته وزوجة علىٍّ التى كانت تبكى أختها أشد البكاء . . ولقد جعل له النبى عليه الصلاة والسلام سهمين فى غزوة بدر . . أى أنه عليه الصلاة والسلام سواه بمن شاركوا فى معركة بدر . .

وقد عفا عنه عليه الصلاة والسلام يوم أحد . . كما أنه كان سفيراً للنبى عليه الصلاة والسلام أثناء بيعة الرضوان إلى مكة ليفاوضهم ليسمحوا للرسول وصحبه بالطواف بالكعبة لأن النبى لم يأت محارباً . . ولكن قريش أبت على المسلمين ذلك واحتجزوا عثمان. . وطلبوا منه أن يطوف بالكعبة فرفض . . بينما النبى عليه الصلاة والسلام ممنوع من ذلك . . وسرت إشاعة بأن عثمان قتل . .

فقرر النبى الانتقام . . وكانت بيعة الرضوان . . التى بايع فيها المسلمون على القتال . . إلى أن اكتشف أن عثمان لم يقتل . . وعندما جاء عثمان بايع النبى عليه الصلاة والسلام على ما بايع عليه المسلمون.

وكان النبى عليه الصلاة والسلام قد طلب من عمر بن الخطاب أن يقوم بهذه المهمة . . إلا أن عمر رشح عثمان بدلاً منه لما له من عصبية فى مكة . . قائلاً للرسول الكريم:

- إنى أخاف قريشاً على نفسى . . وليس بمكة من بنى عدى من يمنعنى . . وقد عرفت قريش عداوتى أياها وغلظتى عليها . . ولكنى أدلك على رجل أعز بها منى . . عثمان بن عفان.

ووافق الرسول عليه الصلاة والسلام . . وأرسل عثمان ليخبر زعماء مكة أنه ما جاء إلا معظماً بيت الله الحرام وزائراً له.

وقد أجار عثمان أبان بن سعيد بن العاص . . وعندما غاب عثمان عن الرسول كانت إشاعة مقتله . . وكانت بيعة الرضوان. . ووضع الرسول الكريم يده اليمنى على اليسرى وقال: «اللهم هذه عن عثمان فى حاجتك وحاجة رسولك».

وقد عبر القرآن الكريم عن هذه البيعة بالقول الكريم:

﴿ لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ ﴾ [الفتح: ١٨]

ولقد بايع عثمان بيعته عند عودته. .

ويصور لنا البخارى فى صحيحه . . شخصية عثمان ومنزلته . .

وما قيل عنه . . على لسان رجل يحاول الطعن فيه . . على شكل أسئلة وجهها إلى عبد الله بن عـمر . . فإذا بعبد اللّه بن عمر يضع النقط فوق الحروف . .

ماذا روى البخارى فى صحيحه؟

أنه قال:

« جاء رجل من أهل مصر . . حج البيت فرأى قوماً جلوساً . . فقال:

من هؤلاء القوم؟

قالوا : هؤلاء من قريش.

قال: فمن الشيخ فيهم؟

قالوا: عبدالله بن عمر.

قال: إن عثمان فر فى يوم أحد؟

قال: نعم.

قال: هل تعلم أنه تغيب عن بدر ولم يشهد؟

قال: نعم.

قال: هل تعلم أنه تغيب عن بيعة الرضوان فلم يشهدها؟

قال: نعم.

قال: اللّه أكبر.

قال ابن عمر : تعال أبين لك . .

أما فراره يوم أحد فأشهد أن اللّه عفا عنه وغفر له . . وأما تغيبه

عن بدر فإنه كانت تحته بنت رسول الله ﷺ وكانت مريضة فقال له رسول الله ﷺ:

«إن لك أجر رجل ممن شهد بدراً وسهمه» . .

وأما تغيبه عن بيعة الرضوان . . فلو كان أحد أعز ببطن مكة من عثمان لبعثه مكانه . . فبعث رسول الله ﷺ عثمان وكانت بيعة الرضوان بعد ما ذهب عثمان إلى مكة . . فقال رسول الله ﷺ وسلم بيده اليمنى: « هذه يد عثمان فضرب بها على يده . . فقال: هذه لعثمان . . فقال له ابن عمر : أذهب بى الآن معك ».

ولعل تلك المحاورة التى دارت بين عثمان رضى الله عنه والصحابى الجليل أبى عبيدة عامر بن الجراح . . تلقى ضوءاً على هذه الاتهامات التى اتهم بها ، وعابها عليه معارضوه وهو تخلفه يوم بدر . . وهربه فى موقعة أحد . . وتخلفه عن بيعة الرضوان.

فقد قال له أبو عبيدة:

- يا عثمان تخرج على فى الكلام وأنا أفضل منك بثلاث؟

فقال عثمان : وما هن؟

قال: الأولى أنى كنت يوم البيعة حاضراً وأنت غائب . . والثانية شهدت بدراً ولم تشهده . . والثالثة كنت ممن ثبت يوم أحد ولم تثبت أنت.

فقال عـثمان : صدقت . . أما يـوم البيعة فإن رسـول الله ﷺ بعثـنى فى حاجة ومـد يده عنى وقال هـذه يد عثمان بـن عفان . . وكانت يده الشريفة خيراً مـن يدى . . وأما يوم بدر فإن رسول الله ﷺ استخلفنى علـى المدينة ولم يمكننى مخالفته وكـانت ابنته رقية مريضة واشتغلت بخدمتها حتى ماتت ودفنتها . . وأما انهزامى يوم أحد فإن اللّه عفا عنى وأضاف فعلى إلى الشيطان . . قال تعالى :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴾ [آل عمران : ١٥٥]

فالذى يدرس سيرة الرجل وحياته مع رسول الله ﷺ يراه إنساناً صافى السريرة . . نـقى القلب . . يمتلئ قلبه بحـب الخير والرحمة والحنان ،حتى أن النـبى الكريم بشره بالجنة ، بجـانب أنه كان أحد كتاب الوحى . . وزوج بنتى رسول اللّه.

هذه المميزات التى كان يمتاز بهـا عثمان جعلته شفاف الروح . . وما أكثر ما نسب إليه من كرامات.

ومما يـروى عنه مثـلاً . . أن أحد الرجال دخـل عليه . . فـقال عثمان يدخل على أحدكم وفى عينيه أثر الزنا . .

فقال الرجل: أوحى بعد رسول اللّه ﷺ ؟

فقال له عثمان : لا . . ولكن فراسة صادقة.

وإذا كان هذا الرجل . . الجـميل الوجه . . المهيب الـطلعة . . الأسمر الوجـه . . ذو اللحية الكـبيرة . . والذى كان يشـد أسنانه

بالذهب . . ويصفر لحيته . . وعلى وجه آثار الجدرى . . الربعة . . الذى ليس بالطويل . . ولا بالقصير . . وهذه كانت صورته . . وهذه كانت منزلته عند الرسول . . فهذا بالتأكيد يعنى وزن هذه الشخصية التى تولت الخلافة بعد عمر بن الخطاب . . ولقد كان الرجل أثيراً عند الصديق . . وهو الذى كتب وصيته بأن يتولى عمر الخلافة من بعده . . وكان الصديق قد أملى وصيته وقد اشتد عليه المرض . . حتى أنه عندما أخذ يملى عليه الوصية . . أغمى عليه ولم يكن قد أملى بعد اسم الخليفة . . فلما أفاق وجد أن عثمان قد كتب (عمر بن الخطاب) . . فأقره بذلك .

لقد أملاه الصديق وصيته لمن سيكون خليفة للمسلمين من بعده . . ونص الوصية:

« بسم اللّه الرحمن الرحيم . . هذا ما عهد به أبو بكر بن أبى قحافة فى آخر عهده بالدنيا خارجاً منها . . وأول عهده بالآخرة داخلاً فيها . . حيث يؤمن الكافر، ويوقن الفاجر، ويصدق الكاذب . . إنى استخلفت عليكم بعدى . . ، . . وأغمى عليه . . فكتب عثمان . . عمر بن الخطاب» . . وأفاق أبو بكر . . وقرأ عليه عثمان ما كتب . . فكبر أبو بكر وقال:

أراك خفت أن تذهب نفسى فى غشيتى تلك . . فيختلف الناس فجزاك اللّه عن الإسلام خيراً . . واللّه أن كنت لها لأهلاً .

وبعدها أتم عثمان ما أملاه عليه الصديق:

«فاسمعوا له وأطيعوا . . وإنى لم آل اللّه ورسوله ودينه ونفسى

وإياكم خيراً، فإن عدل فذلك ظني به وعلمي فيه، وإن بدل فلكل امرئ ما اكتسب ، والخير أردت، ولا أعلم الغيب، وسيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون .. والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته».

وكان أبو بكر الصديق يريد أن يجنب المسلمين الخلاف بعد وفاته.. ولا يحدث ما حدث من انقسام فى صفوف المسلمين عقب انتقال رسول الله ﷺ إلى الرفيق الأعلى .. وما حدث من أحداث فى سقيفة بنى ساعدة .. وما احتدم من خلاف بين الأنصار والمهاجرين.

وفى عهد عمر .. كان عثمان قريباً منه .. وكان للين جانبه فكثيراً ما كان الناس يلجأون إليه لعرض مشاكلهم على عمر الذى كان يهابه الناس لشدته..

ويذكر له أنه عندما أراد المسلمين أن يؤرخوا لحياتهم وللأحداث.. واختاروا الهجرة مبدأ للتاريخ الهجرى .. كان لعثمان الفضل فى أن جعل المحرم هو أول شهور السنة الهجرية.. كما يذكر له التاريخ أنه أشار إلى عمر .. وأخذ عمر بهذه الإشارة فى أن يدون الدواوين وأن يسجل أسماء المستحقين من بيت المال..

* * *

عثمان

«هو أول من أقطع القطائع، وأول من حمى الحمى، وأول من خفض صوته بالتكبير، وأول من خلّق المسجد، وأول من أمر بالأذان الأول في الجمعة، وأول من رزق المؤذنين، وأول من ارتج عليه في الخطبة، وأول من قدم الخطبة في العيد على الصلاة، وأول من فوض إلى الناس إخراج زكاتهم، وأول من ولي الخلافة في حياة أمه، وأول من اتخذ صاحب شرطة، وأول من اتخذ المقصورة في المسجد خوفاً من أن يصيبه ما أصاب عمر، وأول من وقع في عهده الاختلاف بين الأمة . فخطأ بعضهم بعضاً في زمانه في أشياء نقموها عليه، وأول من هاجر إلى الله بأهله، وأول من جمع الناس على حرف واحد في القراءة، وأول منكر ظهر بالمدينة في عهده حين فاضت الدنيا . وانتهى سمن الناس».

تاريخ الخلفاء - جلال الدين السيوطي



الخـــلافـــــة

بعد أن طعن أبو لؤلؤة المجوسى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب . . وبعد أن أصبح علاجه ميئوساً منه . . خشى المسلمون الفتنة بعد وفاته . . فطلب منه الناس كما طلبت منه عائشة أم المؤمنين أن يرضى بخلف له حتى لا يترك الأمور تسير بما لا يحمد عقباه.

وظل عمر بن الخطاب يفكر رغم جراحه فى طريقة تحسم الأمر، حتى لا تتعرض البلاد للفتنة . . وكان هذا الموقف من المواقف العمرية الخالدة التى لا تنسى . . فعمر أشد الناس خوفاً من اللّه . . وأكثرهم زهداً وبعداً عن الدنيا . . فما هفت نفسه يوماً للسلطة كسلطة . . ولكن السلطة عنده وسيلة لتحقيق مبادئ الإسلام ونشر تعاليمه . . ومن هنا فتبعية الخلافة ثقيلة . . حتى قيل أنه تردد فى أول الأمر وقال:

- إن استخلفت فقد استخلف من هو خير منى (يقصد أبا بكر) وإن أترك فقد ترك من هو خير منى (يقصد النبى عليه الصلاة والسلام.

ويروى عنه قوله:

- لو كان أبو عبيدة حياً لاستخلفته فإن سألنى ربى قلت سمعت نبيك يقول : إنه أمين هذه الأمة . .

ولو كان سالم مولى أبى حذيفة حياً استخلفته فإن سألنى ربى قلت سمعت نبيك يقول : إن سالماً أشد الحب للّه.

وعندما رشح أحد الناس ابنه عبد اللّه للخلافة نهاه عمر قائلاً:

- قاتلك اللّه واللّه ما أردت له بهذا .. ويحك كيف استخلف رجلاً عجز عن طلاق امرأته .. لا أرب لنا فى أموركم .. ما حمدتها فأرغب فيها لأحد من أهل بيتى .. إن كان خيراً فقد أصبنا منه.. وإن كان شراً فشرعنا إلى اللّه .. حسب آل عمر أن يحاسب منهم رجل واحد .. ويسأل عن أمر أمة محمد ﷺ. أما لقد أجهدت نفسى وحرمت أهلى فإن نجوت كفانا لا وزر ولا أجر.. إنى لسعيد.

وقال عمر بعد أن طلب منه الناس أن يحدد الموقف: كنت أجمعت بعد مقالتى لكم أن أنظر فأولى رجلاً أمركم هو أحراكم أن يحملكم على الحق (وأشار إلى عبدالرحمن بن عوف) ثم رأيت ألا أتحمل أمركم حياً وميتاً .. عليكم هؤلاء الرهط الذين قال رسول اللّه ﷺ أنهم من أهل الجنة .. علىٌ وعثمان ابنا عبد مناف، وعبدالرحمن وسعد خالا رسول اللّه، والزبير بن العوام حواريه وابن عمته، وطلحة الخير بن عبيدالله، فليختاروا منهم رجلاً، فإذا ولوا والياً فأحسنوا مؤازرته، وأعينوه أن أئتمن أحد منكم فليؤد أمانته..

ودعا هؤلاء الرهط وقال لهم:

- إنى نظرت فوجدتكم رؤساء الناس وقادتهم . . ولا يكون هذا الأمر إلا فيكم . . وقد قبض رسول اللّٰه وهو عنكم راض . . إنى لا أخاف الناس عليكم إن استقمتم . . ولكنى أخاف عليكم فيما بينكم فيختلف الناس . .

وحدد لهم عمر ثلاثة أيام يتم خلالها انتخاب الخليفة الجديد بعد موته . .

وقال للمقداد بن الأسود:

- إذا وضعتمونى فى حفرتى فاجمع هؤلاء الرهط فى بيت حتى يختاروا رجلاً منهم.

وقال لصهيب:

- صلى بالناس ثلاثة أيام.

ثم عادل فقال للمقداد:

- أدخل علياً وعثمان والزبير وسعداً وعبدالرحمن وطلحة إن قدم . . لأنه خارج المدينة . . وأحضر عبداللّٰه بن عمر ولا شئ له من الأمر . . وقم على رؤوسهم فان اجتمع خمسة ورضوا رجلاً وأبى واحداً فاشدخ رأسه بالسيف . . وإن اتفق أربعة فرضوا رجلاً منهم وأبى اثنان فاضرب رأسيهما . . فإن رضى ثلاثة رجلاً وثلاثة رجلاً فحكموا عبداللّٰه بن عمر . . فأى الفريقين حكم له فليختاروا رجلاً منهم . . فإن لم يرضوا بحكم عبد اللّٰه بن عمر فكونوا مع

الذين فيهم عبدالرحمن بن عوف . . واقتلوا الباقين إن رغبوا عما اجتمع عليه الناس.

مرت أيام عصيبة بعد وفاة عمر . .

وخشى الناس الفتنة . . فالإسلام لم يستقر فى الأمصار التى فتحها المسلمون . . والصراع يشتد بين الأمويين متمثلاً فى رغبتهم بأن تصبح الخلافة من نصيب عثمان بن عفان.

والهاشميون الذين يريدون أن يكون الخليفة هو علىٌّ بن أبى طالب . . وكأنه الصراع القديم بين الأمويين والهاشميين عاد كما كان قبل ظهور الإسلام . .

فقد تركز الصراع بين علىٍّ وعثمان . . بعد أن انسحب عبدالرحمن بن عوف . . وآثر ألا يكون خليفة للمسلمين . . وبعد أن ركز جهده للقيام بهذه المهمة الضخمة . . وهو انتخاب الخليفة الجديد من بين أهل الشورى . .

وكم كان عمر عظيماً . . وحصيفاً . . يوم أعطى تلك النصيحة الغالية لمن سيتولى الخلافة من بعده . . وهو يتجه إلى أهل الشورى طالباً منهم ألا يعتمدوا على أقاربهم فى حكم المسلمين . . بل يعتمدوا على الكفاءة والقدوة الحسنة.

فقد قال لعلىٍّ:

- إن وليت من أمر المؤمنين شيئاً . . فلا تحملن بنى عبدالمطلب على رقاب الناس.

وقال لعثمان :

- يا عثمان . . إن وليت من أمر المسلمين شيئاً . . فلا تحملن بني أبي معيط على رقاب الناس.

وقال لعبد الرحمن بن عوف:

- فإن كنت على شئ من أمر الناس يا عبدالرحمن . . فلا تحملن ذوى قرابتك على رقاب الناس. .

واجتمع أهل الشورى . . وطال نقاشهم. .

وعبدالرحمن بن عوف يريد أن يحصر الخلافة فى شخص يرضاه الناس . . ويتفق عليه أهل الشورى . . بعد أن انخلع هو من الخلافة . . وانحصر الأمر بين علي وعثمان . . وتعهد عبد الرحمن بعد أن أخذ مواثيقهم . . وأعطاهم مثله على أن يكونوا معه على ما بدل وغير . . وأن يرضوا بمن يختار لهم على ميثاق اللّه لا يحضر ذا رحم لرحمه . . ولا يألو على المسلمين.

وقابل (علياً) على انفراد وقال له:

- إنك تقول أنى أحق من حضر بالأمر لقرابتك وسابقتك . . وحسن أثرك فى الدين . . ولم تبعد . . ولكن أرأيت لو صرف هذا الأمر عنك فلم تحضر . . من كنت ترى من هذا الرهط أحق بالأمر؟

قال عليٌ: عثمان.

وذهب إلى عثمان وقال له:

- تقول شيخاً من بنى عبد مناف.. وصهر رسول اللّه ﷺ وابن عمه.. لى سابقة وفضل.. ولم تبعد.. فلم يصرف هذا الأمر عنى؟ ولكن لو لم تحضر فأى هؤلاء الرهط أحق به؟

قال عثمان: علىّ.

وقام عبدالرحمن بن عوف بجهد كبير.. بين أهل الشورى.. وبين الناس.. وانقضت الأيام الثلاثة التى حددها عمر بن الخطاب.. وخشى الناس مغبة الفتنة.. واتجه عبدالرحمن إلى مسجد رسول اللّه وامتلأ المسجد بالناس.. بعد صلاة الصبح..

وأخذ الهاشميون يتحدثون عن علىٍّ ومآثرهم..

وأخذ بنى أمية يتحدثون عن تاريخهم..

و.. هناك من يؤيد علياً..

وهناك من يؤيد عثمان..

وكان على عبدالرحمن بن عوف أن يحسم الأمر..

نادى علياً وقال له:

- عليك عهد اللّه وميثاقه لتعملن بكتاب اللّه وسنة رسوله وسيرة الخليفتين من بعده؟.

قال على: أرجو أن أفعل وأعمل بمبلغ علمى وطاقتى..

أى أن علياً.. قد تحفظ.. وآثر أن يعمل حسب اجتهاده..

ودعا عبد الرحمن (عثمان) وقال له:

- عليك عهد اللّه وميثاقه لتعملن بكتاب اللّه وسنة رسوله وسيرة الخليفتين من بعده؟ . .

قال عثمان : نعم.

فبايعه عبدالرحمن بن عوف . . وبايعه الناس . .

وذهب عبدالرحمن إلى علىّ بن أبى طالب يطلب منه أن يقوم لمبايعة عثمان . . وهو يقول:

﴿ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهُ اللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٠﴾ ﴾ [الفتح : ١٠]

وقال له علىّ:

- ليس هذا أول يوم تظاهرتم فيه علينا . . فصبر جميل والله المستعان على ما تصفون.

وذهب علىّ لمبايعة عثمان .

وبدأت خلافة عثمان بن عفان . . ليكون ثالث الخلفاء الراشدين . . وليحكم امبراطورية مترامية الأطراف . . وليأخذ الطريق مسيرته . . ثم تتوالى الأحداث التى غيرت مجرى التاريخ الإنسانى كله .

وكانت مبايعة عثمان يوم الاثنين لآخر ليله من ذى الحجة سنة ٢٣ هجرية . . أى أنه استقبل الخلافة فى أول المحرم سنة ٢٤ هجرية . . وكان عمره سبعين عاماً.

وكان أول خطاب له توجه به إلى الناس قوله:

« الحمد للَّه . . أيها الناس اتقوا اللَّه . . فإن الدنيا كما أخبر اللَّه عنها . .

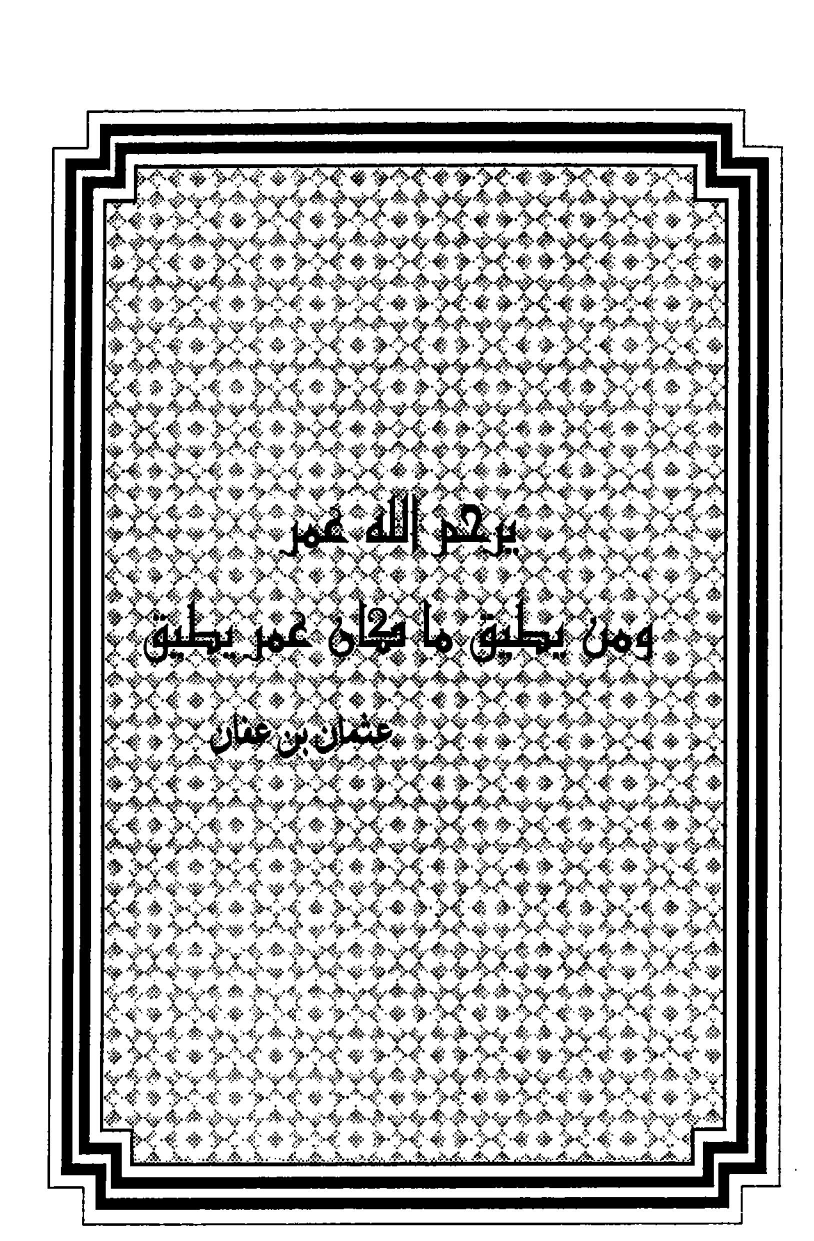
﴿لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ (٢٠)﴾ [الحديد: ١٠]

فخير العبادات فيها من عصم باللَّه واستعصم باللَّه وبكتابه . . وقد وكلت من أمركم بعظيم . . ولا أرجو العون عليه إلا من اللَّه . . ولا يوفق للخير إلا هو . . وما توفيقى إلا باللَّه عليه توكلت وإليه أنيب » . .

ولقد ارتج عليه فى أول مرة يخطب فيها للناس . . فقال لهم:

« أيها الناس . . إن أول مركب صعب . . وإن بعد اليوم أياماً . . وإن أعش تأتكم الخطبة على وجهها . . وما كنا خطباء . . وسيعلمنا اللَّه » . .

* * *


يرحم الله عمر
ومن يطيق ما كان عمر يطيق
عثمان بن عفان



تتابع الأحداث

كان عثمان هو ثالث الخلفاء الراشدين . .

ورث امبراطورية مترامية الأطراف . .

امبراطورية بشّر بها النبى عليه الصلاة والسلام وبدأها عندما أمر أسامة بن زيد بالتوجه صوب الشام للانتقام لشهداء مؤته ومجابهة الرومان . . وهو الذى سبق أن قال للمسلمين . . . وهم محاصرون فى المدينة أثناء غزوة الأحزاب أن اللّٰه سوف يفتح للمسلمين بلاد الفرس والروم.

يومها ضحك المنافقون . . وسخر من لا إيمان لهم . . فكيف يعدهم النبى عليه الصلاة والسلام بفتح بلاد الفرس والروم . . وهم محاصرون بجيش هائل من مكة ومختلف القبائل العربية . . وقد بلغت الروح الحناجر . . وتم نصر اللّٰه . . وتفرقت الأحزاب . . وجاء أبو بكر ليضع نواة الامبراطورية عندما أرسل أسامة بن زيد كما أمر النبى إلى الشام . . ثم تبع ذلك أن أرسل جيوشه الضاربة لغزو الروم . . ثم بارك زحف المثنى بن حارثة الشيبانى فى العراق لمحاربة الفرس . . ثم أرسل خالد بن الوليد لمساعدته وليقود جيوش الإسلام الظافرة فى ربوع العراق . . وتوالت الأحداث . . وتولى عمر الخلافة . . وإذا به يدخل المعركة بكل ثقله . . وبكل ما له من حزم وجرأة وشجاعة . . فإذا بالإسلام ينتشر بسرعة البرق ويهزم

الفرس والرومان هزائم ساحقة .. وينتقل عمر إلى رحاب اللّه .. ويتولى عثمان الخلافة ، والعدل ينتشر فى كل مكان..

فعمر قد أسس هذه الدولة على العدل والتقوى ومخافة اللّه..

وأرسل القضاة .. وعين الولاة .. وفرض للناس حقوقاً فى بيت مال المسلمين..

وكان عمر لا يهاب فى الحق أحداً ولا يخشى أحداً .. ونعم الناس بالأمن والأمان .. فخليفة المسلمين نفسه يعيش حياة زاهدة.. بل بالغة الزهد إلى درجة تصل إلى حد القسوة على النفس..

فكان عمر قدوة ..

وأى قـــدوة ..

فمـــا سكن قصـــراً !.

ولا أحاط نفسه بالخدم والحشم !.

ولا سار وخلفه حراس أو حجاب.

ولا انكب على لين الطعام..

فما كان يجرؤ أن يتحدث فى حضرته بما لا يليق .. ولا يجرؤ إنسان مهما بلغت مكانته أن يرفع رأسه إليه لأن عمر ليس فيه ما يؤخذ عليه .

و..تغيرت الدنيا..

تغير المجتمع العربى .. فالإسلام قد انتشر فى بلاد الفرس والعراق والشام ومصر .. وتدفقت الأموال على بيت الله..

وجاء عثمان .. إنسان طيب القلب .. هادئ الطباع .. محبوباً من الجميع .. رائع الهيبة .. ولكنه يختلف عن عمر فى كثير من الأمور.

فإذا كان عمر زهداً ... فعثمان ورث الغنى .. والجاه .. فهو من كبار تجار مكة .. والناس يألفونه ويألفهم .. ليس بينهم وبينه مسافة .. شديد الحياء .. حتى قال فيه النبى عليه الصلاة والسلام:

« أصدق أمتى حياء عثمان ».

وإذا كان عمر يقسو على نفسه فلا يأكل إلا خشن العيش، فقد كان عثمان محباً للجيد من الطعام .. وكان يقول:

- يرحم الله عمر .. ومن يطيق ما كان عمر يطيق !.

وقد استفتح عثمان حكمه .. وكان عليه أن يحل مشكلة.. والمشكلة تتعلق بعبيد الله بن عمر الذى قتل الهرمزان وجماعة معه أعتقد أنهم كانوا وراء مؤمرة قتل والده العظيم عمر بن الخطاب.. وكان الهرمزان هذا أحد قواد الفرس الذين أسروا فى معركة (تستر) وجاء إلى المدينة وأسلم .. وفرض له عمر من بيت مال المسلمين.. وعندما قتل عمر بيد أبى لؤلؤة المجوسى .. وجدوا أن الخنجر الذى كان معه قد شوهد مع الهرمزان .. ومن هنا فقد قام ابن عمر عبيد الله بقتله لاشتراكه فى المؤامرة..

ولكن بعض الصحابة كان يرى أن عبيد اللّٰه قد جاوز حده . . وأنه ما كان ينبغي أن يقتل سوى أبى لؤلؤة المجوسى وحده . . بل أفتى الإمام علىٌّ بن أبى طالب بقتل عبيد اللّٰه بن عمر . . ولكن عمرو ابن العاص رفض ذلك وقال لا يقتل عمر بالأمس ويقتل ابنه اليوم . .

وما كان من عثمان الطيب القلب . . بقادر أن يقتل ابن عمر . . وقد قتل والده بالأمس . . فآثر أن يؤدى ديته من ماله الخاص . . وقال إنه ولى الهرمزان لأنه لا ولى له . .

وقد اتخذ البعض من هذه الحادثة . . ما يأخذونه على عثمان . . واتهامه فى التقصير فى حدود اللّٰه . .

وبدأت خلافة عثمان . . والناس متفائلون بها . .

فالرجل محبوب من الجميع . .

وليس فيه شدة عمر . .

وعليه أن يحكم هذه الامبراطورية المترامية الأطراف . . بل وعليه أن يتوسع فى مد أطراف الامبراطورية . . فما زالت هناك مساحات شاسعة تحت السيطرة الفارسية . . وما زالت الامبراطورية الرومانية التى انسحبت من الشام تعد العدة للانقضاض على الامبراطورية الإسلامية التى قامت بشكل معجز لم يعرف التاريخ له مثيلاً .

وفترة حكم عثمان رغم كل ما قيل عنها فترة من أزهى

الفترات.. لأن فيها تحقق الكثير من الانتصارات العسكرية حيث تقدمت الجيوش الإسلامية إلى حدود الهند والصين .. وتقدمت شمالاً إلى خلف بحر قزوين .. كما أنها تقدمت غرباً حتى أبواب القسطنطينية .. وضمت قبرص إلى الامبراطورية الإسلامية، واقتربت الجيوش الإسلامية إلى حدود الحبشة كما سوف نرى.. كما تكون لأول مرة أسطول عربى فى مصر والشام استطاع أن ينزع السيادة البحرية على البحر الأبيض المتوسط من الروم إلى العرب.

إنها صفحات مجيدة .. نسيها الناس .. وحاول تشويهها الكارهون للخليفة الثالث أعقاب الفتنة الكبرى التى اندلع أوارها بشكل مثير .. عندما تتابعت الأحداث فيما بعد ..

كما أن عثمان بن عفان قام بأخلد عمل اقترن باسمه فى كل العصور وهو جمعه للقرآن الكريم..

وهنا يتبادر سؤال .. أليس أبو بكر الصديق هو أول من أمر بجمع القرآن الكريم .. بعد أن استشرى القتل فى حافظى القرآن أثناء حروب الردة .. فطلب عمر بن الخطاب من أبى بكر أن يأمر بجمع القرآن وشرح اللّه صدر (أبى بكر) فأمر بجمع القرآن الكريم فى مصحف واحد .. وبذلك حفظ القرآن الكريم..

إن الفرق بين ما قام به الخليفة الراشد أبى بكر الصديق وبين ما قام به عثمان بن عفان .. أن سيدنا عثمان أمر أن يجمع القرآن بلسان قريش حتى لا تضيع معانيه وسط صخب اللهجات

المختلفة.. فنحن نقرأ القرآن الآن بلهجة قريش .. وهى أفصح اللهجات العربية .. كما كان ينطق به رسول الله ﷺ.

وهكذا جعل الأمة الإسلامية كلها فى مشارق الأرض ومغاربها على مصحف موحد .. وهذا عمل جليل من الأعمال التى لم تنس ولن تنس لعثمان بن عفان.

وقد كان وراء جمع مصحف عثمان قصة .. فقد جاء حذيفة بن اليمان إلى عثمان.. وكان من الذين حضروا المعارك فى الشام والعراق .. وهاله أن يرى الناس يقرأون القرآن بلهجات مختلفة.. حتى أن بعضهم كان يتفاخر على الآخر بأن قراءاته خير من قراءة الآخرين .. وخاف الرجل مغبة هذا الاختلاف فقال لعثمان بن عفان:

- أدرك يا أمير المؤمنين هذه الأمة قبل أن يختلفوا فى قراءة القرآن.. كما اختلف اليهود والنصارى فى التوراة والإنجيل.. فتعدد النسخ ينقض بعضها بعضاً .. فيتمسك كل فريق بما فى يده.. ويزيدون وينقصون فيها تبعاً للأهواء .. وأدرك سيدنا عثمان صحة كلام الرجل .. وتبين أن مخاوفه فى موضعها .. فطلب المصحف الموجود عند حفصه .. ثم أمر عبد الله بن الزبير، وسعيد ابن العاص ، وعبدالرحمن بن الحارث، وزيد بن ثابت الأنصارى، وهم أشهر حفظة القرآن .. ومعروف أن زيد بن ثابت هو الذى أوكل إليه عملية الجمع فى عهد الصدّيق.. وقال لهم:

- إذا اختلفتم فى شئ فاكتبوه بلسان قريش فإنه نزل بلسانهم.

وعندما أتموا هذا العمل الجليل رد المصحف الشريف إلى حفصه.. ثم أرسل إلى الأقطار المختلفة المصحف الشريف المتفق عليه.. وأمر أن يحرق ما سواه.

وكان عثمان رضى اللّه عنه من أفقه الناس فى الدين، وحافظاً لكتاب الله الكريم، كما كان من كتاب الوحى، وهو أيضاً الذى كتب وصية أبى بكر الصديق بأن يكون عمر خليفة للمسلمين بعده.

ومن مآثره رضى الله عنه، أنه زاد من اتساع بيت اللّه الحرام.. ومن المعروف أن بيت اللّه الحرام على عهد النبى عليه الصلاة والسلام وعهد الصديق كان عبارة عن فناء بسيط يحيط بالكعبة ليطوف الناس به بين مساكن الناس.. ولما تولى عمر الخلافة وسّعه قليلاً وأقام لأول مرة سوراً حوله.. وعلى هذا السور كانت توضع المصابيح لإضاءته فى الليل.. وجاء عثمان ليزيد من اتساع بيت اللّه الحرام.. وليقيم حوله ولأول مرة الأروقة.. وكانت الكعبة على عهد الرسول وأبى بكر تكسى ببسط ولكن فى عهد عمر وعثمان كانت تكسى بنسيج صنع فى مصر من الكتان كان يطلق عليه القُباطى -بضم القاف-.

وقد كانت هذه الزيادة التى قام بها عثمان رضى اللّه عنه لبيت اللّه الحرام عام ٢٦هـ.

وبعد ذلك قام رضى اللّه عنه فى عام ٢٩هـ بتوسيع مسجد

رسول اللّه ﷺ . . بل إنه هدمه وبناه بعد أن استشار الناس . . وبناه بالحجر . . بعد أن كان مبنياً باللبن والجريد . . وقد استغرق هذا البناء كما يقول بعض المؤرخين عشرة أشهر . . وقال الحافظ بن حجر أن بناء عثمان للمسجد سنة ثلاثين للهجرة . . وقيل فى آخر سنة من خلافة عثمان . .

وكان عثمان يحب أن يشاور الناس فى أى عمل يقوم به حتى أن مروان بن الحكم لامه لأنه يستشير الناس فى كل صغيرة وكبيرة . . وقال له أن عمر وسع مسجد الرسول ولم يستشر أحد من الناس .

فكان رد عثمان : إن عمر اشتد عليهم فخافوه حتى لو أدخلهم فى جحر ضب لدخلوه . . وإنى لنت لهم حتى أصبحت أخشاهم .

* * *

ولنمض مع عثمان رضى اللّه عنه فى خلافته . . وإنجازاته الرائعة التى لا يعرف البعض عنها إلا القليل . . تلك الإنجازات التى غيرت مسار التاريخ الإسلامى . . ثم بعد ذلك نتكلم عن الروافد التى مهدت للفتنة الكبرى . . وكيف قامت هذه الفتنة . . وكيف انتهت . . وتأثيرها الهائل على مجرى الأحداث التاريخية لأجيال متتالية . . حتى نأخذ صورة واضحة المعالم عن هذه الفترة الهامة من التاريخ الإسلامى . . فترة حكم عثمان رضى اللّه عنه والتى استمرت قرابة اثنى عشر عاماً هجرية .



خذوا الحق واعطوا الحق به

عثمان بن عفان



مجريات الأحداث

بدأ عثمان رضى اللّه عنه الحكم بأن أقام الولاة كل فى مكانه لمدة عام كوصية سلفه العظيم عمر بن الخطاب .. وأرسل إلى ولاة الأقاليم، وإلى قواده، وإلى المشرفين على الخراج .. بل وأرسل أيضاً إلى العامة يزجى لهم النصيحة بضرورة الاستمساك بكتاب اللّه وسنة رسوله .. ويوضح لكل فئة من هذه الفئات ما ينبغى أن يكون عليه سلوكهم فى الحياة.

فهو مثلاً يرسل إلى عماله كما يروى الطبرى فيقول:

- أما بعد فإن اللّه أمر الأئمة أن يكونوا رعاة .. ولم يتقدم إليهم أن يكونوا جباة .. وإن صدر هذه الأمة خلقوا رعاة ولم يخلقوا جباه، وليوشكن أئمتكم أن يصيروا جباة ولا يكونوا رعاة. فإن عادوا كذلك انقطع الحياء والأمانة والوفاء .. ألا وإن أعدل السيرة أن تنظروا فى أمور المسلمين وفيما عليهم فتعطوهم مالهم وتأخذوهم بما عليهم .. ثم تثنوا بالذمة فتعطوهم الذى لهم وتأخذوهم بالذى عليهم .. ثم العدو الذين تنتابون فاستفتحوا عليهم بالوفاء..

ويكتب إلى المسئولين عن الخراج .. فينصحهم بأن يكونوا أمناء لا يظلمون أحداً .. ولا يبغون على أحد .. بل يكون الحق فوق كل شئ.. انظر إلى خطابه إليهم عندما تولى الحكم:

- أما بعد فإن اللّه خلق الخلق بالحق فلا يقبل إلا الحق . . خذوا الحق وأعطوا الحق به . . والأمانة الأمانة ولا تكونوا أول من يسلبها فتكونوا شركاء من بعدكم إلى ما اكتسبتم . . والوفاء الوفاء . . ولا تظلموا اليتيم ولا المعاهد فإن اللّه خصهم لمن ظلمهم.

ومن خلال كتب عثمان فى أول ولايته لمختلف طبقات المجتمع من حكام وقادة وعمال خراج وعامة . . نراه حريصاً أن يسود العدل بين الناس . . وأن تسود مبادئ الإسلام . . وأن يعيش الناس جميعاً بنعمة اللّه إخواناً . . وألا يُظلم إنسان يعيش تحت راية الإسلام مهما كانت ديانته . .

وتتوالى الأحداث . . لتشكل فى النهاية وضعاً عجيباً فى التاريخ ترك بصماته على الحياة أجيالاً وأجيالاً . .

فالإسلام ينطلق بقوة يضم أراض جديدة إليه . . بل ويتسع اتساعاً كبيراً . . ليستقر فى بلاد فارس والشمال الأفريقى وقبرص . .

والأوضاع الداخلية تأخذ أيضاً مسارات جديدة . . تلك الأوضاع التى جعلت أمر عثمان فى غاية الحرج . . رغم الانتصارات التى تحققت فى عهده . . وسوف نحلل أسبابها والدوافع التى أدت إليها . .

وحتى نعرف معالم الصورة على حقيقتها . . ولا نتوه فى دوامة الفتنة الكبرى . . لا بد أن نعرف كل معالم الصورة لرجل من أحب

أصحاب رسول اللّه إلى قلب رسول اللّه .. ولإنسان قدم من الأموال فى سبيل الله الكثير .. حتى أنه جهز جيش العسرة أيام الرسول عليه الصلاة والسلام..

والمتتبع للتاريخ فى هذه الفترة الحاسمة فى تاريخ العالم الإسلامى.. يجد أن هناك الروافد والمشكلات التى تضخمت ثم سرعان ما تحولت إلى نهر جارف .. فاض فأغرق من حوله .. وكان من هذه الراوفد مثلاً التى بدأت فى هذه الفترة من التاريخ مشكلة سعد بن أبى وقاص مع الخليفة عثمان بن عفان .. ونحن نعرف تاريخ سعد بن أبى وقاص وإسلامه .. وقرابته من رسول اللّه .. ثم إنه واحد من مجلس الشورى الذى طلب عمر بن الخطاب أن يكون الخليفة من بعده واحداً منهم .. وهو الذى تم على يديه هزيمة الفرس ودخل المدائن عاصمة كسرى .. وكان مستجاب الدعاء .. وقد كان سعداً والياً على الكوفة .. وحدث خلاف بينه وبين الصحابى عبدالله بن مسعود الذى كان مسئولاً عن بيت المال .. بسبب أن سعداً كان قد اقترض بعض المال .. وعندما طالبه ابن مسعود برد هذا المال .. ولم يكن متيسراً لسعد السداد حدث تشاجر بينهما .. وعلم بذلك عثمان بن عفان.. فلم يرقه ما حدث وقرر عزل سعد .. وولى بدله الوليد بن عقبه .. ولكنه فى نفس الوقت أبقى على ابن مسعود.

وهنا تساءل البعض . . لماذا لم يعزل ابن مسعود؟

وهل يرجع ذلك إلى أن ابن مسعود كان يرعى غنم عقبة بن معيط والد الوليد الذى تولى بدل سعد بن أبى وقاص أى أن ابن مسعود كان من أتباع بنى أمية . . والوليد من بنى أمية . . بل كان الوليد أخاً لعثمان لأمه . .

وقد جاء إسلامه متأخراً . . فقد كان إسلامه بعد فتح مكة . . وعندما أرسله الرسول عليه الصلاة والسلام إلى بنى المصطلق بعد ذلك هاب مواجهتهم وأرسل إلى الرسول أنهم ارتدوا عن الإسلام . . ولم يكن ذلك صحيحاً . . فقد أنزل اللّٰه فيهم قوله:

﴿ إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا ﴾ [الحجرات:٦]

وأرسل الرسول لهم خالد بن الوليد رضى اللّٰه عنه . . الذى قابلهم وأخبروه أنهم متمسكون بالإسلام لا يحيدون عنه . .

فتاريخ الوليد إذن ليس مشرفاً . . ليس له تاريخ سعد . . ولا وزنه . . ولا نضاله الطويل فى أيام الرسول . . وأيام أبى بكر وعمر . . فليس هناك مجال للمقارنة بين سعد والوليد . . إلا إذا كان عثمان قد آثر أخاه عليه ومن هنا يقولون أن سعداً عندما جاء الوليد ليحل محله قال:

– واللّٰه ما أدرى أكيست من بعدنا أم حمقنا بعدك؟ .

ورد الوليد:

- لا تجز عن أبا اسحاق فإنما هو الملك يتغذاه قوم ويتعشاه قوم آخرون.

فرد سعد :

- أراكم واللّه ستجعلونه ملكاً. .

* * *

وتمضى الأحداث على مستوى الدولة . . فنحن نعرف أن مصر كانت قد استظلت براية الإسلام على يد عمرو بن العاص الذى قهر الروم فى أكثر من معركة، حتى تحقق له النصر ودخل الإسكندرية، وفى عهد عثمان عزل عمرو بن العاص، وولى مكانه عبدالله بن أبى سرح . . وكان عبدالله بن أبى سرح هذا ليس له تاريخ مشرف . . فقد كان النبى عليه الصلاة والسلام قد أهدر دمه لارتداده عن الإسلام، وتقوله على الرسول كلاماً مفترى. . وكان أخاً لعثمان من الرضاعة . . وكان عبداللّه بن أبى سرح من الذين هاجروا مع الرسول . . وكان يجيد القراءة والكتابة. . ودون بعض آيات القرآن الكريم . . ولكنه هرب وارتد عن الإسلام وعاد إلى مكة . . وعندما تم الفتح أهدر النبى دمه . . ولكنه اختبأ . . وتشفع له عثمان بن عفان . . وعفا عنه الرسول . . واختاره عمر بن الخطاب

ليشرف على جباة خراج مصر.. وعندما قتل عمر وتولى عثمان الخلافة عزل عمرو بن العاص .. وأحله محله .. فأخذ يزيد من جباية الضرائب..

وفى هذه الظروف كان بعض تجار الإسكندرية قد أرسلوا إلى كونستانس امبراطور بيزنطة للعودة لاحتلال الإسكندرية عن طريق البحر .. وأنهم على استعداد لمساعدته .. وكان حلماً ذهبياً للرومان .. أن يعيدوا مجدهم فى مصر .. فحشدوا أسطولاً ضخماً لعملية الغزو .. لأنهم يعلمون أنهم لو أعادوا سيطرتهم على مصر، فسوف يتسنى لهم إعادة قبضتهم على الشمال الأفريقى والشام .. بل وربما استطاعوا قهر امبراطورية الإسلام من جديد.. وإعادة السيطرة الرومانية على ما كانت عليه قبل الفتوحات الإسلامية .. وقد شجعهم على ذلك أنهم يملكون أسطولاً ضخماً، بينما الإمبراطورية الإسلامية لا تملك أسطولاً بحرياً يمكن أن يجابههم فى البحر .. فلا خطر على الإطلاق من أى مواجهة حربية فى البحر.

وأعد الرومان الخطة .. وكانت خطة سرية فوجئ بها العرب فى مصر.. وإذا بهم يهاجمون الإسكندرية فى خريف عام (٦٤٥م) بقيادة عمانويل الذى جاء بجيش فى أسطول وصل عدد سفنه إلى ثلاثمائة سفينة كما يقول بعض مؤرخى العرب .. ولم يكد الرومان

ينزلون المدينة حتى عاثوا فيها قتلاً وفساداً . . ووصلت هذه الأنباء المزعجة إلى الخليفة فأعاد عمرو بن العاص إلى مصر ليطهرها من شراذم الرومان . . وكان الروم قد حصنوا الإسكندرية وأقاموا عليها الأسوار ثم زحفوا نحو القرى فى محاولة لاستعادة مصر ونهب ثروات القرى التى وقعت تحت إيديهم!.

وجاء عمرو بن العاص . . واستطاع أن يجر الرومان فى معركة خارج أسوار الإسكندرية حيث تبرز قدرة العرب العسكرية فى الصحراء والأراضى المكشوفة . . واستطاع بالفعل أن يهزم الرومان هزيمة منكرة رغم أن جيشه لم يتعد خمسة عشر ألفاً من الجنود. . مما اضطر الروم إلى الهرب إلى الإسكندربة من جديد والاحتماء بأسوارها . . وقرر عمر فيما بينه وبين نفسه أن يهدم أسوار الإسكندرية بمجرد استعادتها من جديد تحت السيادة العربية . . وقد استطاع عمرو بالفعل دخول الإسكندرية . . وهدم أسوارها . . وقتل القائد الرومانى عمانويل . . وعادت مصر من جديد تحت الحكم الإسلامى. .

ولكن هذه الغزوة من جانب الروم قد نبهت العرب إلى ضرورة هامة وحيوية . . وهى ضرورة وجود أسطول عربى يحمى شواطئ العالم الإسلامى . . ويجابه القوة البحرية الرومانية التى تهدد شواطئ الإمبراطورية الإسلامية. .

ولكن ما الذى حدث فى مصر بعد أن عادت الأمور إلى طبيعتها . . وانهزمت الجيوش الرومانية . . ؟

لقد أراد الخليفة عثمان بن عفان أن يجعل عمرو بن العاص قائداً للجيش بها . . ويتكفل عبدالله بن أبى سرح بالحكم فى المسائل الإدارية . . ورفض عمرو هذا . . وبعث إلى الخليفة يقول له :

- إنى كماسك قرنى البقرة والأمير يحلبها .

وما كادت هذه الرسالة تصل إلى يد الخليفة حتى أمر بعزل عمرو ابن العاص تماماً . . ليتولى حكم مصر أخوه فى الرضاعة عبدالله ابن أبى سرح الذى قال عنه الطبرى أنه كان من أسوأ عمال عثمان .

وكان على الوالى الجديد أن يظهر بعض الأعمال التى تلفت الأنظار إليه . . فكان من طموحاته أن يزحف نحو الشمال الأفريقى ليجابه الرومان هناك . . ويحقق انتصاراً عليهم . . وفى نفس الوقت راودته فكرة أسطول عربى حتى لا يفاجأ العرب بغزو من الرومان قادم من البحر كما حدث عند اعتدائهم على الإسكندرية . .

ونفس فكرة بناء الأسطول راودت أيضاً معاوية بن أبى سفيان فى الشام . . وأرسل للخليفة عثمان يلتمس منه الأمر ببناء أسطول حتى يستطيع تأمين السواحل العربية من غزو الرومان باستيلائه على بعض جزر البحر الأبيض المتوسط .

وفكرة قيام أسطول بحرى راودت معاوية فى زمن عمر بن الخطاب . . واستشار عمر فى ذلك الوقت عمرو بن العاص فأرسل إليه عمرو وصفاً للبحر . . أخاف عمر بن الخطاب من أن يزج بجنود المسلمين فى شئ لم يألفوه . . ولم يتعودوا عليه . . ولم يتمرسوا بأساليب القتال فيه . . كانت رسالة عمرو مليئة بالأسلوب البلاغى أكثر مما فيه من الأسلوب العلمى . . فكتب إلى عمر بن الخطاب يصف البحر:

- إنى قد رأيت خلقاً كبيراً يركب خلقاً صغيراً . . ليس إلا السماء والماء. . إن ركن خرق القلوب . . وإن تحرك أزاغ العقول. . يزداد فيه اليقين قلة . . والشك كثرة . . هم فيه كدود على عود. . إن مال غرق. . وإن نجا برق.

وبالطبع رفض عمر بن الخطاب طلب معاوية . . وجاءت الأيام بصدق إحساس معاوية . . فها هم الرومان قد حاولوا استعادة مصر باعتدائهم على الإسكندرية بواسطة الأسطول . . ولولا شجاعة المسلمين . . وخبرة عمرو بن العاص العسكرية . . لعادت مصر كلها مرة أخرى تحت الاحتلال الرومانى . . ولا أحد بعدها كان يعرف ما سوف تؤول إليه الامبراطورية الإسلامية التى وطدها الخليفة العظيم عمر بن الخطاب.

كان تكوين الأسطول العربى إذن ضرورة ملحة من ضرورات

المجتمع الإسلامى فى هذه الحقبة الهامة من التاريخ .. ووافق عثمان بن عفان على طلب معاوية .. وفى نفس الوقت طلب من معاوية ألا يجبر الناس على الدخول فيه .. بل يكون الأمر حسب رغبتهم ... وعلى الفور شرع معاوية فى بناء أسطول مستعيناً بعبد اللّه بن أبى سرح فى مصر .. وتألف الأسطول بالفعل .. وكان بحارته من المصريين والسوريين .. وتولى قيادته أول قائد بحرى فى الإسلام وهو عبداللّه بن قيس الجاسى.

واستطاع هذا الأسطول أن يدخل قبرص .. وأن تعقد معاهدة بين المسلمين وأهلها على أن يدفعوا الجزية للمسلمين .. وإن اشترط أهلها أن يدفعوا فى نفس الوقت الجزية للرومان .. إلا أن العرب أخذوا العهد على أهل قبرص إبلاغ العرب بتحركات الأسطول الرومانى .. وأن تصبح قبرص قاعدة عربية ينطلقون منها كما يشاؤون عند اعتزامهم غزو جزر البحر الأبيض المتوسط..

والعجيب أنه أصبح للأسطول العربى شهرة فى كل موانى البحر المتوسط .. حتى ان اسم عبداللّه الجاسى أصبح معروفاً فى كل موانى البحر المتوسط .. بل إن هذا القائد الشجاع نزل مرة إلى أحد موانى الرومان .. وكان يركب قارباً ويلبس ملابس التجار .. وعرفته امرأة رومانية .. أبلغت عنه الرومان .. وقتل بعد أن سجل صفحة رائعة من صفحات الجهاد الإسلامى..

ولم يكن من المعقول أن يرى الرومان هذه القوة العسكرية البحرية المتزايدة التى تهددهم فى عقر دارهم وأن يسكتوا .. فقد ظلوا يعدون ليوم الانتقام .. وظلوا ثلاث سنوات يكونون أسطولاً بحرياً ضخماً .. وكان وراء ذلك طموحات كونستانس الثانى فى أن يحقق نصراً حاسماً على المسلمين .. وأن يعيد للرومان مجدهم الذى مرغه العرب فى الأوحال .. وأن يجعل لنفسه مكانة فى التاريخ الرومانى، ونسى أن قوة العرب كانت فى عنفوانها .. وأنها فى مرحلة الشباب الجسور .. بينما روماً تنحدر نحو شفق المغيب.. فقد تهرأت وشاخت وما عاد لديها القدرة لمجابهة هذه القوة الإسلامية التى تكتسح ما أمامها كإعصار هائل .

ووصلت الأنباء إلى العرب .. بأن الروم ينوون مهاجمة الإسكندرية مرة أخرى بأسطول ضخم قوامه خمسمائة سفينة .. جاءت الأنباء إلى عبدالله بن أبى سرح بذلك .. وقرر أن يوجه الروم فى عرض البحر .. ولا ينتظر قدومهم ونزولهم إلى الشاطئ.. وهو يعلم أن المعركة سوف تكون فى غاية القسوة والضراوة .. وأن هذا هو أروع امتحان للأسطول الإسلامى..

وقبل التحدى ..

واشتعل المسلمون حماساً .. يدفعهم بذلك إيمان عميق بنصر الله .. ورغبة أكيدة فى القضاء على الأسطول الرومانى..

كان البحر عاصفاً . . والسفن تتلاعب بها الأمواج . . وآثر الرومان عدم الالتحام إلى صبيحة اليوم التالى . . حيث اندفع المسلمون نحو الأعداء . . وتداخلت السفن ودارت معركة من أعتى المعارك التى عرفتها حروب البحر . . كان المسلمون مستميتين لتحقيق النصر . . حتى أن الرومان شعروا بأن لا قبل لهم بالمسلمين رغم قلة خبرتهم البحرية . . فقد تلاحموا مع العدو بالخناجر والسيوف وكل أدوات القتال . . وانحسرت المعركة عن نصر حاسم للعرب قبل غروب الشمس فى هذا اليوم البالغ القسوة والعنف والتى جرت فيه الدماء على السفن . . وعلى مياه البحر . . فى هذا الجو شعر قسطنطين بن هرقل بأن الهزيمة لا محالة لاحقة بالأسطول الرومانى . . فقرر أن يفلت بما يستطيع من السفن . . فأصدر أوامره بالانسحاب . . وعاد جريحاً مهزوماً إلى جزيرة صقلية . . وهو يعلم تماماً أن شمس حياة جديدة أشرقت على الحياة . . وأن حضارة المسلمين من الصعب . . إن لم يكن من المستحيل قهرها . . فقد أصبحوا سادة للبحر كما أصبحوا سادة للبر . . وقيل أنه قتل هناك بيد الرومان . . ولكن على أية حال فقد غزا العرب بعد ذلك هذه الجزيرة ووقعت فى أيديهم . . ولم يعودوا يهابون البحر . . وأصبح فى إمكانهم التصدى لأية قوة بحرية مهما بلغت قوتها . . بعد تلك المعركة الرائعة التى سميت (بذات الصوارى).

***

انتصارات متلاحقة

لقد تحدثنا عن هزيمة الرومان فى المعركة العسكرية التى قادها عمرو بن العاص . . وعرفنا كيف عزل عمرو . . وأن عبداللّه بن أبى سرح أراد تحقيق انتصارات كبيرة فحقق هذا الانتصار البحرى الهائل، ثم امتدت طموحاته أن يوسع من رقعة الإسلام فى أفريقية، فتقدم بجيشه ليضرب الامبراطورية الرومانية فى الصميم. . فسلطانهم ما زال يمتد على طول الساحل الشمالى الأفريقى من طرابلس حتى طنجة . . ومركز هذا الاستعمار فى قرطاجنة.

وقرر عبدالله بن أبى سرح أن يطهر الشمال الأفريقى منهم فزحف ليواجه القوة الرومانية بعد أن استشار عثمان بن عفان فى ذلك ووافق عثمان على الزحف، وأرسل مدداً يزيد عن عشرة آلاف مقاتل . . يضم بعض أعلام الصحابة . . أمثال : عبدالله بن عباس. . وابن عمر . . والحسن والحسين. .

وعلى الجانب الآخر . . فقد استعد الرومان وقرروا من جانبهم أن يحطموا الجيش الإسلامى . . ويعيدوا مجدهم الغارب، وكان قائدهم جريجورى يقود جيشاً ضخماً يزيد عن ١٢٠ ألف مقاتل. . إنها إذن فرصة سانحة أمامه أن يعيد مجد روما المنهار . . ولو حقق

النصر على العرب لفتح ثغرة هائلة للتغلغل الرومانى من جديد فى الشرق والغرب !.

المعركة سوف تكون طاحنة بلا شك..

وسوف تكون حاسمة أيضاً..

وعثمان فى المدينة قلق أشد ما يكون القلق .. وخاصة أنه لم تصله أنباء مطمئنة عما يدور فى الجبهة .. فإذا به يطلب من عبداللّه ابن الزبير أن يقود جيشاً صغيراً .. ويذهب على وجه السرعة إلى جبهة أفريقية، ثم يأمره أن يرسل إليه بالأخبار .. وبسرعة مذهلة كان عبداللّه بن الزبير قد ذهب إلى ميدان القتال .. وتقابل مع عبدالله بن أبى سرح .. ودرس سير المعارك التى دارت بين العرب والروم .. وعلم أن المعارك تدور إلى وقت معين من النهار حتى إذا تعب الفريقان .. عاد كل فريق إلى معسكره .. وفكر عبدالله بن الزبير فى الأمر .. وأخذ يفكر فى خطة عسكرية جديدة .. لأن الأمر لو استمر على هذا الحال فإنه سيطول ولا يضمن أحد نتائج المعركة .. حيث يمد الأسطول القاعدة الرومانية بالعدد والعتاد.. بينما خط مواصلات العرب بعيداً جداً عن مقر الخلافة فى المدينة.. وقرر عبداللّه بن الزبير أن يقسم الجيش العربى إلى قسمين.. يجاهد النصف بالنهار .. حتى إذا ما حاول العدو الانسحاب فاجأه الجيش الذى لم يحارب .. ووافق عبدالله بن أبى سرح على هذه الخطة .. وفوجئ الرومان بعد معركة دامية رهيبة

وقد أصابهم التعب وهم ينسحبون للاستعداد للقتال فى اليوم التالى بقوة جديدة تخترق صفوفهم .. وتعمل فيهم قتلاً .. وقيل أن القائد الرومانى أعلن أن من يقتل عبدالله بن أبى سرح فسوف يزوجه ابنته .. وقيل أن عبدالله بن أبى سرح انتابته نوبة من الخوف.. وهنا أعلن ابن الزبير أن من يقتل القائد الرومانى من العرب فسوف يزوجه ابنته .. ودب الرعب فى قلب القائد الرومانى.. وابتدأ التفوق العربى يظهر .. ثم سرعان ما دب الخوف وشبح الهزيمة فى الرومان .. دب اليأس فى قلوبهم أمام استبسال المسلمين .. وانقلبت الكفة وقتل جريجورى على يد عبدالله بن الزبير ... وأسرت ابنته .. وتحقق النصر بعد معارك دامية استمرت قرابة خمسة عشر شهراً ، وقد أهدى عبدالله بن أبى سرح ابنة جريجورى أو جرجير كما كان يطلق عليه العرب هدية لابن الزبير لجسارته وجرأته الفائقة .. ولأنه استطاع قتل جرجير.. ثم عاد ابن الزبير إلى المدينة ليزف البشرى للخليفة .. وقد طلب منه الخليفة أن يعلن هذا النصر الهائل للناس من فوق المسجد.

وكان عثمان قد وعد ابن أبى سرح إن حقق النصر أن يأخذ لنفسه الخمس من الغنائم .. وهذا الإهداء كان من الأسباب التى أخذت على الخليفة حيث اندلعت الفتنة ضد عثمان.

* * *

لقد تحقق بهذا الانتصار على قوات الروم فى الشمال الأفريقى قوة دفع هائلة أمام المسلمين للتقدم فى كل الجهات لنشر نور الإسلام وحضارة الإسلام . . فقد تقدمت الجيوش الإسلامية بعد هزيمة جرجير حتى وصلت إلى مشارف مدينة القيروان الحالية.

ومن جهة أخرى . . فقد حاول الروم الدخول إلى الشام نفسها فحشدوا جيشاً كبيراً . . قدره بعض المؤرخين بـ ٨٠ ألفاً للزحف من الأناضول إلى الشام . . وتقدم إليهم معاوية بعد أن أمره عثمان بمجابهة هذه القوة، وأمده بجيش من الكوفة بعد أن أمر الخليفة واليها الوليد بن عقبة بالقيام بهذه المهمة . . وواجهه الجيش الإسلامى بقيادة حبيب بن مسلمة الرومان ، وانتصروا عليهم . . وتقدموا حتى وصلوا إلى البسفور.

ولما كان الأكراد قد ساعدوا الرومان فى زحفهم على الشام . . فقد رأى حبيب بن مسلمة بعد أن انتصر على الرومان . . أن يقوم بتأمين هذه المنطقة الشمالية كلها . . فسار الجيش بعد ذلك وقد انقسم إلى شعبتين، ثم زحف ليضم هذه المساحات الكبيرة من الأراضى حتى بحر قزوين الغربى . . وكذلك واصلوا زحفهم حتى شرق البحر الأسود . . وهكذا دانت لهم المنطقة الشمالية إلى إيران. . ثم قضى معاوية بن أبى سفيان على باقى معاقل الروم فى الأناضول. . وهكذا دعم الخليفة الثالث الامبراطورية الإسلامية . . وأحكم قبضته عليها . . وزاد من اتساع مساحتها بعد أن ضم إليها

رقعة فسيحة فى أفريقيا وآسيا . . ورضخت هذه البلاد للحكم الإسلامى . . بعد أن كانت تتصور أنه من الممكن أن يعودوا إلى ما قبل الفتح العربى عندما سمعوا بمقتل أمير المؤمنين عمر بن الخطاب . . فإذا بخليفته له من الجرأة ما يجعله يعطى أوامره بمواصلة الزحف الإسلامى فى كل الجبهات . . حتى ترتفع كلمة لا إله إلا اللّه محمد رسول اللّه . .

واستطاع عبدالله بن عامر والى البصرة الذى تولى حكمها بعد أبى موسى الأشعرى . . وهو ابن خال عثمان . .وكان فى الخامسة والعشرين من عمره أن يقضى على الثورات فى فارس . . ثم يتقدم فيعبر جبال الهندكوش ويحتل مدينة (كابل) . . وتتقدم جيوشه لتصل إلى ضفاف نهر السند . .

وفى نفس الوقت الذى كان يحقق فيه عبداللّه بن عامر هذه الانتصارات كان سعيد بن العاص والى الكوفة . . يتقدم هو الآخر وقد كون جيشاً من الكوفة ليقضى على الفتن التى قامت فى طبرستان وجرجان جنوب بحر الخزر . . ونجح فى ذلك . .

وهنا يجب أن نتوقف قليلاً لنرى نهاية آخر ملوك فارس كسرى يزدجرد . . الذى هرب بعد معركة نهاوند إلى مدينة الرى . . ومنها إلى أصفهان فمدينة اصطخر . . وعندما تعرضت هذه المدينة للهجوم على يد أبى موسى الأشعرى . . هرب الامبراطور إلى نهر المرغاب . . وهناك أرسل رسائل إلى ملوك الصين والأفغان

يستنجدهم ليساعدوه على صد الزحف الإسلامى الكاسح . . واستجاب له حاكم خراسان، وخاقان الترك الذى أرسل له العديد من الهدايا . . وقيل أن هذا الخاقان أراد أن يتزوج من ابنه (يزدجرد) . . ولكن الامبراطور المكسور الجناح نسى أنه لم يعد كسرى الذى تنحنى له الجباه . . وأن امبراطوريته الفسيحة قد وقعت كلها فى يد المسلمين . . وأنه يكافح كفاحاً يائساً لاسترداد عرش من المستحيل استرداده . . وأنه فى معاركه اليائسة مع المسلمين فقد كل شئ . . ولم يعد له من مجده سوى الامبراطور بلا امبراطورية : . نسى يزدجرد كل ذلك . . ورأى فى خاقان الترك مجرد عبد من عبيده . . وهل يليق بالعبد أن يجرؤ ويتقدم للزواج من ابنه الامبراطور . . وذهل الخاقان وهو يتلقى رسالة يزدجرد برده على طلب يد ابنته من أنه مجرد عبد لا يليق أن تبلغ به الجراءة أن يتقدم لمصاهرة الامبراطور، فغضب لهذه الغطرسة من ملك فقد كل شئ . . بل لقد بلغ الهوس بيزدجرد وهو ما زال يتخيل أنه ما زال الامبراطور أنه يريد محاسبة الرجل الذى أكرم وفادته وحاول أن يحاكم مرزبان خراسان . .

إن الرسالة التى بعث بها إلى خاقان الترك أثارت غضبه وقرر الانتقام . . وتقدم بجيش كبير لمهاجمة يزدجرد . . واستطاع أن يحطم جيشه . . وهرب يزدجرد إلى مدينة المرو . . فلم يستقبله أحد . . فهرب إلى منزل طحان على نهر الرغاب . . حيث آواه

الطحان طمعاً فى التاج الذى يحمله .. وقتله ورمى بجثته فى النهر.. وقيل أنه قتل من أحد أعوان حاكم خراسان .. ولكن الروايات تجمع أنه قتل .. ورمى فى قاع النهر عارياً تماماً .. وهكذا كانت نهاية آخرة أباطرة الساسانيين الذين حكموا فارس قرابة أربعة قرون ! .. وبموت هذا الامبراطور انتهت المقاومة الرسمية للمسلمين فى فارس .. فقد قتل فى عام ٦٥٢ ميلادية .. وانتهت بذلك وإلى الأبد صورة من صورة الحياة التى مرت بالتاريخ الإنسانى .. وارتفعت راية الإسلام فى هذه البلاد الشاسعة بنشر تعاليم الحرية والعدل والإسلام .. وتمهد للانطلاق الكاسح للحضارة الإسلامية التى ارتفعت رايتها..

وهذه صورة زاهية من عصر عثمان رضى الله عنه .. فلم يكن خليفة ضعيفاً كما اتهمه البعض زوراً .. ولكنه كان خليفة من أعظم خلفاء المسلمين .. فقد كون امبراطورية إسلامية هائلة تمتد من الهند فى الشرق إلى نهرى سيحون وجيجون حتى بلاد القوقاز، ثم وصل بالزحف الإسلامى إلى قرب المحيط الأطلنطى .. وهو بذلك قد استطاع أن يحقق انتصارات عسكرية مذهلة .. ولولا الظروف التى أحاطت بالخلافة كما سنرى .. والأسباب التى أدت إلى هذه الفتنة الكبرى والتى ذهب ضحيتها الخليفة الشهيد نفسه .. لتغيرت معالم الصورة كلها فى النظر لهذه الفترة التاريخية الهامة التى تركت آثارها لعشرات القرون .. ولا تزال تثير الجدل والنقاش

بين المؤرخين والمهتمين بسيرة الحياة الإسلامية فى مسارها التاريخى.

ولا شك أن اختيار عثمان للقادة الذين قاموا بهذه الانتصارات كان اختياراً موفقاً . . فقد اثبتوا فى المعارك التى خاضوها فى مناخ يختلف عما ألفوه أنهم كانوا أبطالاً بكل ما توحى به هذه الكلمات من معنى . .

فقد حاربوه فى الثلوج فى الشمال . .

وحاربوه فى الجبال الوعرة . .

كما حاربوا جيوشاً منظمة . . وعصابات مسلحة . . ورجالاً تمرسوا على الحروب المنظمة . . وحروب العصابات . . وانتصروا فى البحر أيضاً رغم أنهم حديثى العهد بالبحرية . . بل أن البحرية الإسلامية تدين بوجودها أصلاً لعثمان بن عفان نفسه . . فقد سمح لمعاوية وعبد الله ابن أبى سرح بتشييد الأسطول الإسلامى . . وكان أمير المؤمنين عمر بن الخطاب قد رفض ذلك خوفاً على رجال المسلمين الذين لم يكن لهم خبرة بالبحر . . وحروب البحر . . وهذا الأسطول الذى أمر بتكوينه عثمان بن عفان . . حقق به المسلمون الانتصارات البحرية الكبيرة فى معركة ذات الصوارى . . وهزموا أعتى الأساطيل فى العالم . . وهو الأسطول الرومانى . . كما احتلوا به وأخضعوا به أيضاً جزر البحر المتوسط . .

هذه الصور الرائعة لعصر عثمان بن عفان .. هل يمكن أن تتحقق لو كان عثمان ضعيفاً .. غير قادر على اتخاد القرار كما يقول البعض؟

إن الرجل الذى كان قد تجاوز السبعين عاماً استطاع بقوة إرادته وبشخصيته الحبيبة إلى النفوس وحلمه أن يسوس هذه الامبراطورية الضخمة التى كونها سلفه العظيم عمر بن الخطاب..

وأن يزيد من رقعتها الضخمة .. وأن يدخل فى عهده الإسلام جنسيات كثيرة .. عربية وبربرية .. وقوقازية وفارسية وهندية .. كما أنه حفظ كتاب اللّه الخالد .. بجمعه القرآن الكريم على لسان واحد..

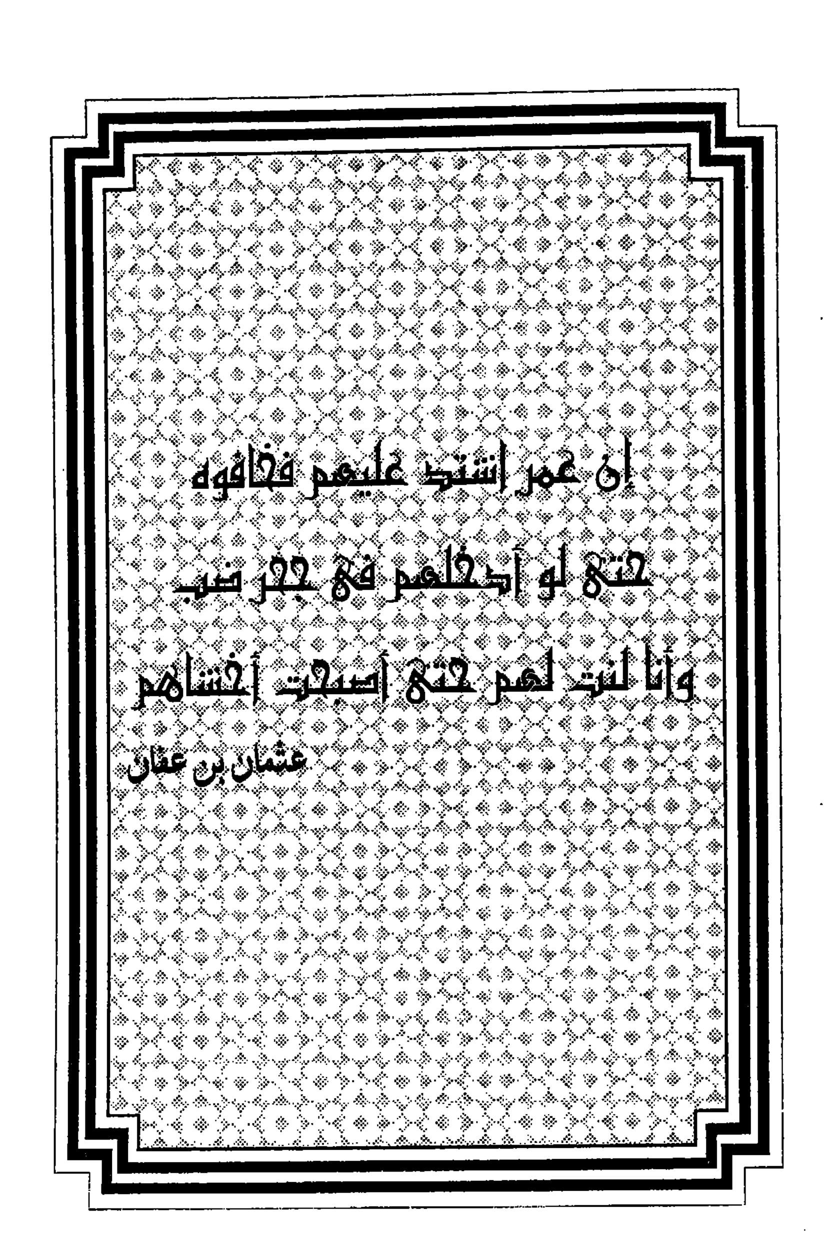
ولكن لماذا صارت الأمور إلى ما صارت إليه ؟

لماذا اندلعت الفتنة .. وأخذت مسارها نحو التعقيد .. وكيف انتهت بموت الخليفة الثالث؟..

هذا ما سوف نراه فى الفصول التالية .

* * *




إن عمر اشتد عليهم فخافوه
حتى لو أدخلهم في جحر ضب
وأنا لنت لهم حتى أصبحت أخشاهم
عثمان بن عفان



تغير المجتمع

رأينا صورة لما قدم الخليفة الثالث عثمان بن عفان من صفحات مشرقة فى تاريخ الإسلام . . ولولا الظروف التى أدت إلى الفتنة التى كانت لها آثاراً بعيدة المدى لتغير نظر التاريخ لهذا العصر من عصور الحياة . .

تلك الفترة التى أثرت على مجرى التاريخ الإسلامى لأجيال عديدة . . وما تزال . . فهناك من يرى أن هذه الفترة كانت سبباً فى تفريق كلمة المسلمين لأزمنة طويلة . . حتى قيل أن عبدالرحمن بن عوف الذى كان سبباً فى اختيار عثمان للخلافة قد ندم على ذلك . .

وهناك من يرى أن عثمان أدى دوره كما ينبغى أن يؤدى . . ولكن الظروف التى مارس فيها السلطة كانت تختلف عن الفترة التى حكم فيه الشيخان العظيمان . . أبو بكر وعمر !! ومن هنا فقد كان من الصعب على عثمان أن يسوس الناس كما كان يسوسهما الصديق وعمر .

لقد جاء الصدّيق فى ظروف بالغة القسوة . . حيث كان المرتدون . . ومدعو النبوة . . والذين منعوا الزكاة . . كما كان هذا الخلاف الذى دب بين الأنصار والمهاجرين عقب موت الرسول الكريم مباشرة فى من تؤول إليه الخلافة . . وحسم الخلاف فى

السقيفة لصالح المهاجرين . . وتولى أبو بكر الخلافة . . وكانت أمامه أمور بالغة القسوة والضراوة . . ولأنه كان امتداداً لرسول اللّٰه ﷺ . . فقد حارب فى كل الجبهات . . حارب مانعى الزكاة . . والمرتدين . . والذين ادعوا النبوة . . وفى نفس الوقت سير جيش أسامة الذى كان النبى قد أعده للانتقام من الروم . . حدث ذلك كله بقوة إرادة خارقة نابعة من إيمان الصديق العميق بربه . . ورسالة الإسلام . . ونجح فى سياسته نجاحاً خارقاً . . فانشغل الناس هذه الفترة بالجهاد فى سبيل اللّٰه . .

وعندما تولى عمر بن الخطاب الخلافة . . بعد أن رشحه الصديق وتمت البيعة من الناس تأييداً لخليفة رسول اللّٰه . . كان لعمر بن الخطاب من قوة الشخصية والمهابة ما يفوق الوصف . . وكان مع ذلك قدوة رائعة لم يعرف لها التاريخ مثيلاً متأسياً برسول اللّٰه ﷺ . . شديداً فى الحق إلى أقصى حدود الشدة . . وشديداً على نفسه إلى أقصى ما يمكن أن يتصوره بشر . . يحاسب نفسه كما لم يحاسبها ألد أعدائه . . وانطلقت الفتوحات فى عهده بسرعة البرق . . فحطم امبراطورية الفرس . . وقضى على أسطورة الرومان فى الشام ومصر وجزء من الشمال الأفريقى . . واتسعت رقعة الإسلام اتساعاً ضخماً . . وتدفقت الأموال على عاصمة الخلافة فى المدينة . . وكان على عمر العظيم أن يسوس هذه الدولة بما يحفظ مكانتها . . حتى يستقر الإسلام فى أرجاء هذا العالم

الفسيح . . ولم يكن فى حاجة إلى اختراع تشريع يقنن حياة الناس. . فالتشريع موجود . . كتاب اللّه وسنة رسول اللّه . . فكتاب اللّه لم يغادر كبيرة ولا صغيرة إلا أحصاها . . وسنة الرسول ترسم صورة لما ينبغى أن يكون عليها المسلم . . للمسلم حقوق وعليه واجبات يرسم إطارها القرآن والسنة . . ومصارف الأموال الهائلة التى تدفقت على عاصمة الخلافة معروفة . . فقد أقام عمر بيت المال . . وأصبح لكل مسلم الحق فى أعطيات الدولة على حسب السابقة فى الإسلام . . والجهاد فى سبيل اللّه . . فالإسلام لم يفرق بين مسلم ومسلم ولا عربى وأعجمى . . والفارق الوحيد بينهم هو التقوى . . فأقرب الناس إلى رسول اللّه ﷺ كانوا أصحابه الذين شاركوه فى جهاده ضد الشرك والمشركين. . وكان أقرب الناس إلى قلب الرسول الذين شهدوا معركة بدر التى تغير بعدها مسيرة التاريخ، فارتفعت راية الإسلام فى الجزيرة العربية . . وتكونت القاعدة الضخمة التى انتقل الإسلام بعدها يغزو القلوب والعقول . . وأصبح دولة لها كيانها المتطور الباقى على الدوام . . هؤلاء البدريون كانت لهم مكانة خاصة فى قلب رسول اللّه . . وكذلك كان الذين جاهدوا فى مختلف المعارك التى خاضها الرسول . . وكان لهؤلاء الناس مكانتهم عند أبى بكر وعمر . . وكانت أعطياتهم تتناسب مع سابق جهادهم فى سبيل اللّه . . ومكانتهم من رسول اللّه . . وهؤلاء أيضاً كانوا أهل الحل والعقد . . أى الذين يستشارون فى أمور المسلمين. .

كان عمر يعرف أقدار هؤلاء الناس .. ولكنه فى نفس الوقت حرم عليهم الخروج من مكة أو المدينة إلى البلاد التى فتحت .. حتى لا يفتنوا بالدنيا .. وحتى لا يفتن الناس بهم فى نفس الوقت.. وربما ضاقوا بخلافة عمر .. فالكثير منهم كان يريد أن ينطلق إلى الشام أو العراق أو إلى مصر .. حتى يتسع نشاطه الاقتصادى .. ولكن عمر بشدته وحزمه وبعد نظره .. رفض كل دعوة لهجرة هؤلاء خارج الحجاز فلهم أعطياتهم .. ولهم حرية العمل والتجارة فى الداخل .. ولم يستطع أحد منهم أن يتمرد على عمر .. لأن عمر بجانب شخصيته ومهابته كان قدوة رائعة .. يعيش على الكفاف .. ويحيا كحياة أبسط الناس .. ويلبس الخشن من الثياب .. ويأكل أبسط أنواع الطعام .. بل لا يأكل إلا الزيت فى عام الرمادة .. حيث أمسكت السماء عن المطر .. وأصاب شبه الجزيرة العربية القحط .. وطلب عمر من ولاة الأقاليم أن يمدوه بالغذاء .. فى هذه المحنة عاش عمر كواحد من أبسط أفراد الرعية.. يسير فى طرقات المدينة يبحث عن المحتاجين إلى المعاونة.. ويستمع إلى شكايات الناس .. أما ولاته فقد كان يحسابهم حساباً عسيراً .. ويأخذ منهم ما اعتقد أنه أخذ ظلماً إلى بيت المال ثم يعزل هذا الوالى .. إنسان بهذه الصورة .. وبهذه الجسارة .. وبهذه القدوة الرائعة ..ما كان أحد يستطيع أن يتمرد عليه .. ربما سخط البعض فى أعماق نفسه على قسوة عمر .. ولكن لم يستطع أن يجاهر بذلك .. لأنه لا يجد مبرراً لأى اتهام.

وجاء عثمان ليغير الكثير من معالم الصورة .. فقد سمح لصحابة رسول اللّه بالسفر والتنقل فى مختلف أرجاء العالم الإسلامى .. وأثرى بعضهم ثراء ضخماً .. فاقتنوا القصور والضياع والجوارى.. وبعضهم كان يمتلك من الذهب ما يكسر بالفئوس .. وقيل أن الزبير عندما توفى ترك ثروة ضخمة تقدر بخمسين ألف دينار .. وألف فرس وألف أمة .. وما أكثر ما تحدث المؤرخون عن الثروات الهائلة التى اقتناها الصحابة من أمثال عبد الرحمن بن عوف وإن كان عبدالرحمن بن عوف كان يوزع الكثير من مكاسبه فى سبيل اللّه.

وإذا كانت القدوة دائماً من الأهمية بمكان.. فيكفى أن نعرف كيف كان يعيش عمر .. وكيف يأكل .. وكيف ينام .. ثم نرى كيف يعيش عثمان بن عفان .. فقد وصف المسعودى مثلا حياة عثمان فقال عن داره فى المدينة :

- وبنى داره فى المدينة وشيدها بالحجر والكلس وجعل أبوابها من العاج والمرمر .. واقتنى أموالاً وجناناً وعيوناً بالمدينة .

صحيح أن عثمان رضى اللّه عنه كان واسع الثراء .. وعرفنا كيف جهز جيش العسرة على أيام رسول اللّه .. وكيف اشترى بئر رومة ووهبها للمسلمين .. ولكنه عندما تولى الخلافة لم يغير من حياته الخاصة .. فقد ظل على لين الطعام .. وأجمل الثياب .. ومن ذلك مثلاً ما رواه عبداللّه بن عامر عندما قال:

- كنت أفطر مع عثمان فى شهر رمضان . . فكان يأتينا بطعام هو ألين من طعام عمر . . لقد رأيت على مائدة عثمان الدرمك . . وصغار الضأن كل ليلة . . وما رأيت عمر قط أكل من الدقيق منخولاً . . ولا أكل من الغنم إلا مسانها . . فقلت لعثمان فى ذلك فقال يرحم اللّه عمر . . ومن يطيق ما كان عمر يطيق .

ويبدوا أن عثمان لكرمه وجوده لم يكن يفرق كثيراً بين المال العام والخاص . . وكان يتصرف فى ماله الخاص بما جبل عليه من الكرم والمروءة . . كما حدث مثلاً أن كان لعثمان على طلحة خمسون ألفاً . . وعندما أراد أن يسددها له قال له عثمان :

- هو لك يا أبا محمد معونة لك على مروءتك .

ولكن الوضع بالطبع يختلف مع المال العام . . فقد أحفظ الناس عليه ما منحه لعبد اللّه بن أبى سرح واليه على مصر وأخيه فى الرضاع بخمس خمس غنائم أفريقية . .

ولعل طبيعة عثمان هذه . . وكرمه البالغ . . كان أخشى ما يخشاه منه عمر بن الخطاب . . فقد عرف بحاسته المرهفه . . وبعد نظره . . وتمرسه بالحياة . . ما يمكن أن تجره هذه السياسة عليه . . لو ظل على ما هو عليه من نظرته إلي المال . . فترك له وصية . . غاية فى الروعة والفهم لأمور الحياة يوصية فيها بوصايا . . لو أخذ بها عثمان . . ما حدثت الفتنة وما دار هذا الصراع الدامى الرهيب بعد مقتل الخليفة الشهيد . .

ولا أدل على ذلك من أن السنة الأولى من حكم عثمان رضى اللَّه عنه اتسمت بالاستقرار والأمن والأمان . . وشعر الناس جميعاً بالرضى . . فهو ألين من عمر . . وكان امتداداً له . . فلم يعزل والياً من ولاة الأقاليم كما أوصى بذلك عمر . . ولكنه خالف عمر عندما ضاعف من أعطيات الناس . . وإذا كان هذا قد أدخل السرور فى قلوب الناس إلا أنه فتح الطريق أمام الناس للطمع فى المال العام . . وكان من آمال عمر رضى عنه أن يعيش الناس فى بحبوبة من العيش . . يتساوى فى ذلك كل المسلمين وهو الذى قال:

- إن عشت ليأتين الراعى فى جبال صنعاء نصيبه من هذا المال.

وهو الذى كان فى أخريات عمره يتمنى أن يعيش المجتمع الإسلامى كله وقد وفر لهم كل مقومات الحياة الكريمة وحيث لا يحدث تفاوت ضخم من الناس . . فهو الذى قال:

- لو استقبلت من أمرى ما استدبرت لأخذت من الأغنياء فضول أموال ورددتها على الفقراء .

كانت هذه سياسة عمر . . العدل لا بد أن يسوى بين الجميع . . وأن بيت المال لجميع المسلمين . . وأن كل مسلم له الحق فى بيت المال . . والمرأة . . والطفل . . والرضيع . . ولكن بقدر . . دون ترف.

ولكن عثمان عندما تولى الخلافة ضاعف أعطيات الناس

فاستقبل الناس هذه البادرة من التفاؤل والأمل .. إنهم مقبولون على عهد جديد .. يحققون فيه ما يريدون .. ويغترفون من خيرات الدنيا .. ويسعون فى الأرض العريضة يحققون ثروات كاملة لهم ولأولادهم .. كما تحررت قريش من القيد الذى فرضه عمر عليها بألا يغادروا بلادهم إلى الأقطار الأخرى حتى لا تفتنهم الدنيا .. أو يفتن الناس بهم .. وأصبح الباب مفتوحاً أمامهم .. ولم يكن عمر وهو يحدد هذه السياسة التى رسمها يرسمها عن تسلط على رقاب قريش .. ولكنه كان يعرف ما يجيش فى قلوب أهلها .. وتطلعاتهم إلى الثراء والجاه والتسلط .. ومن هنا فقد كان قانعاً كل القناعة .. عندما نصح علياً وعثمان .. وهو فى ألم جراحه .. ألا يمكن عثمان من آل معيط وبنى أمية فوق رقاب الناس إذا تولى أمور المسلمين .. وألا يحمل علىٌّ بنى عبدالمطلب وبنى هاشم على رقاب الناس.

ولما كان عمر يعرف تماماً سحر المال على النفوس وأثره فى قوتهم وضعفهم .. وتأثيره الضخم على المجتمع .. لهذا أورد الكثير من المؤرخين أن عمر بن الخطاب كان قد أوصى من يجئ بعده بأن يتبع بعض النصائح .. وهذه النصائح هى ثمرة تجربة ابن الخطاب فى الحكم .. وهذه الوصية وجدت فى الكثير من المصادر التاريخية الإسلامية نقرأ فى هذه الوصية :

« أوصيك بتقوى اللّه لا شريك له .. وأوصيك بالمهاجرين

الأولين خيراً . . أن تعرف سابقتهم فى الإسلام . . وأوصيك بالأنصار خيراً . . فأقبل على محسنهم وتجاوز عن مسيئهم . . وأوصيك بأهل الأمصار خيراً . . فإنهم ردء الإسلام . . وغيظ العدو . . وجباة الفئ . . لا تحمل فيئهم إلا عن فضل منهم . . وأوصيك بأهل البادية خيراً . . فأنهم أصل العرب . . ومادة الإسلام . . أن تأخذ من حواش أموال أغنيائهم . . فترد على فقرائهم . . وأوصيك بأهل الذمة خيراً . . أن تقاتل من ورائهم ولا تكلفهم فوق طاقتهم . . إذا ما أدوا ما عليهم للمؤمنين طوعاً . . أو عن يد وهم صاغرون . . وأوصيك أن تخشى اللّٰه فى الناس . . ولا تخشى الناس فى اللّٰه . . وأوصيك بالعدل فى الرعية . . والتفرغ لحوائجهم وثغورهم . . ولا تؤثر غنيهم على فقيرهم . . فإن ذلك بأذن اللّٰه سلامة لقلبك . . وحط لوزرك . . وخير فى عافية أمرك . . حتى تقضى من ذلك إلى من يعرف سريرتك . . ويحول بينك وبين قلبك . . وآمرك أن تشتد فى أمر اللّٰه وفى حدوده ومعاصيه . . على قريب الناس وبعيدهم . . ثم لا تأخذك فى أحد رأفة حتى تنتهك منه مثل ما أنهك من حرمة اللّٰه . . واجعل الناس عندك سواء . . لا تبال على من وجب الحق . . ثم لا تأخذك فى اللّٰه لومة لائم . . وإياك والأثرة والمحاباة فيما ولاك اللّٰه مما أفاء اللّٰه على المؤمنين فتجور وتظلم . . وتحرك نفسك من ذلك ما قد وسعه اللّٰه عليه . . وقد أصبحت بمنزلة من منازل الدنيا والآخرة . . بأن اقترفت لدنياك عدلاً وعفة عما بسط اللّٰه لك . .

اقترفت به إيماناً ورضواناً . . وإن غلبك الهوى اقترفت به سخط اللّه . . وأوصيك ألا ترخص لنفسك ولغيرك فى ظلم أهل الذمة . .

ولقد أوصيتك وحضضتك ونصحتك . . فاتبع بذلك وجه اللّه والدار الآخرة . . واجتزت من دلالتك ما كنت دالاً عليه نفسى وولدى . .

فإن عملت بالذى وعظتك . . وانتهيت إلى الذى أمرتك . . أخذت به نصيباً وافراً . . وحظاً وافياً . . وإن لم تقبل ذلك . . ولم يهمك . . ولم تنزل معاظم الأمور عند الذى يرضى اللّه به عنك . . يكن ذلك بك انتقاصاً ورأيت فيه مدخولاً . . لأن الأهواء مشتركة . . ورأس كل خطيئة إبليس . . وهو داع إلى كل مهلكة . . وقد أضل القرون السابقة قبلك . . فأوردهم النار . . ولبئس حظ امرئ مولاه عدو اللّه الداعى إلى المعصية . . ثم أركب الحق، وخض إليه الغمرات، وكن واعظاً لنفسك . . أنشدك اللّه لما ترحمت على جماعة المسلمين . . فأجللت كبيرهم . . ورحمت صغيرهم . . ووقرت عالمهم . . ولا تضربهم فيذلوا . . ولا تستأثر عليهم بالفئ فتبغضهم . . ولا تحرمهم عطاياهم عند محلها فتعقرهم . . ولا تجمرهم فى البعوث فتقطع نسلهم . . ولا تجعل المال دولة بين الأغنياء منهم . . ولا تغلق بابك دونهم . . فيأكل قويهم ضعيفهم . . هذه وصيتى إليك وأشهد الله عليك والسلام».

والذى يتمعن فى قراءة هذه الوصية التى كتبها أمير المؤمنين عمر

ابن الخطاب . . لمن سيتولى الحكم بعده . . يدرك أى رجل عظيم كان عمر . . فهذه الوصية بمثابة دستور محكم البناء . . من سار عليه لن يضل الطريق . . مهما كان العصر . . ومهما كانت الظروف . . ومهما تغيرت أحوال الحياة الاجتماعية للناس . . ومهما تباينت ظروف الحياة . . ومهما اختلف إيقاع العصر . . فالعدل . . والرحمة . . والمساواة بين الناس . . واحترام الضعيف. . وأخذ حقه من القوى . . وتوقير العلماء . . وإزالة المسافات بين الحاكم والمحكوم . . والعمل من أجل رفاهية الجميع. . وكبح جماح سطوة المال . . أى العمل باللّه وللّه . . هى دستور للحياة فى كل العصور.

ومن هنا نقول أن محنة الحكم الذى آل إليه حكم عثمان رضى اللّه عنه ليس مجرد أن العصر قد تغير عما كانت عليه الحياة أيام عمر . . ولكن لأن هناك روافد كثيرة . . أبعدت الحكم عن هذه المعانى السامية التى قالها عمر فى وصيته . . وأغضبت الناس من عثمان فى الولايات الإسلامية . . فها هو المال قد أصبح له سطوة. . وبالتالى أصبح للأغنياء قوة نفوذ هائلة . . وتكدست الأموال لدى بعض الصحابة فاشتروا العبيد والقصور والضياع فى مصر والشام والحجاز . . وابتدأ الترف يأخذ طريقه إلى النفوس. . فإذا كان الإسلام قد غير الناس من الإعماق . . غير معتقداتهم . . فأنار الإسلام بصائر الناس . . وبقوة الدفع الهائلة التى منحها

الإيمان فى القلوب .. قد غزوا للّه وباللّه .. فركعت أمامهم امبراطوريات كانوا قبل الإسلام يرتجفون من مجرد سماع اسمها.. وجثت على ركبتيها امبراطورية بالغة القوة والرهبة والصولة وهى دولة الرومان .. فداسوها بأقدامهم .. ودخلوا الأراضى التى كانوا يسيطرون عليها ..

وانتقلوا بذلك من البداوة إلى الحضارة.

من قبائل .. إلى دولة لها كيان ووجود وتطلعات..

وأصبحوا أعظم امبراطورية عرفها التاريخ فى فترة زمنية قصيرة جداً .. فكل ذلك كان بفضل الإيمان .. وكان بفضل اتباع دستورهم العظيم .. القرآن الكريم .. والسنة المحمدية الطاهرة.. وتطبيق ما جاء من عند اللّه .. لا فرق بين الناس فى حدود اللّه.. والحاكم أو الخليفة فى ظل هذه الأوضاع منفذ لأحكام الإسلام .. فالكل أمامه سواء .. لا فرق بين فقير وغنى .. أو بين عربى وغير عربى .. فالسلطان هنا هو سلطان الله .. وعلى هذا الأساس ضرب أمير المؤمنين عمر بن الخطاب صحابياً جليلاً بالدرة وهو سعد ابن أبى وقاص .. وهو ثالث ثلاثة من السابقين فى الإسلام .. لأنه تخطى رقاب الناس ليصل إلى مجلس عمر بن الخطاب.. وكان عمر يقسم بعض الأموال على المسلمين..

وقال له عمر : لم تهب سلطان اللّٰه فى الأرض . . فأردت أن أعلمك أن سلطان اللّٰه لا يهابك . .

كانت نصيحة عمر إذن صالحة . . لا للخليفة الذى سوف يأتى بعده . . ولكن لأى حاكم فى أى عصر من العصور.

ولكن عثمان رضى اللّٰه عنه لم يعمل بهذه النصيحة . . عندما ترك بعض الصحابة يتنقلون بين الأمصار فينبهر الناس بهم . . ويكونون مراكز لها نفوذها . . وقد ظهر ذلك بوضوح عندما اندلعت الفتنة . . ونادى كل إقليم بشخص معين تئول إليه الخلافة كما سوف نرى . .

وقد رفض عمر أن يتولى أحد من أقاربه المناصب الهامة . . بل جعل ابنه عبدالله من أهل الشورى . . بإبداء رأيه فقط وليس له الحق فى أن تئول إليه الخلافة . . بينما اعتقد عثمان أن تولية أقاربه للأمصار سيكون دافعاً لهم إلى طاعته . . والمثول لأوامره . . ولكن الأمور لم تكن كما تصور الخليفة . . ولم يكن بعض الذين عينهم على مستوى المسئولية كالذين سبقوهم . .

فمثلا ترك سعد بن أبى وقاص والياً على الكوفة وفقاً لوصية عمر . . . التى تطلب من الخليفة أن يبقى على عمال الأقليم سنة . . وما كادت تمضى هذه السنة حتى عزله عثمان . . وسعد بن أبى وقاص هو من هو مكانة من الرسول . . وهو الذى قهر الفرس . . ودخل المدائن عاصمة كسرى . . وكان مستجاب الدعاء . . لأن

النبى عليه الصلاة والسلام دعا له بذلك . . وأول من رمى بسهم فى الإسلام . . كما كان من أهل الشورى . . وإن كان عمر بن الخطاب قد عزله من الكوفة نتيجة وشايات كثيرة وصلت إلى عمر . . قد عرف عمر أن سعد قد ظلم وقال: « إنى لم أعزله عن سوء ولا خيانة » . . وكان قد ولى بدله المغيرة بن شعبة . . لقد عاد سعد إلى الكوفة فى العام الخامس والعشرين من الهجرة . . ومكث عاماً ثم عزله عثمان . . وولى بدله الوليد بن عقبة . . ولم يكن الوليد له وزن سعد . . كما أن الوليد كان أموياً . . وهو أخ غير شقيق لعثمان . . فهو أخو عثمان لأمه . . ولم يكن تاريخ هذا الرجل مشرفاً . . بل نزل فيه قرآن يتهمه بالفسق . .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ ﴿٦﴾ ﴾ [الحجرات: ٦]

وكان سبب نزول هذه الآية أن الرسول بعث بالوليد إلى بنى المصطلق . . مصدقاً . . فعاد وقال للرسول أنهم ارتدوا عن الإسلام . . فبعث إليهم خالد بن الوليد . . وعلم خالد أنهم لم يرتدوا عن الإسلام . . ولكن الوليد كان يخشاهم فاختلق هذه الحجة . . ونزلت هذه الآية الكريمة فيه كما رأينا . .

ثم عاد الرجل إلى الإسلام وتاب . . حتى أن عمر بن الخطاب استعمله على صدقة بنى تغلب فى الجزيرة . . ولكنه على كل حال لم يكن فى مستوى سعد بن أبى وقاص . . ولكن عثمان ولاه بدلاً

من سعد لقرابته منه . . وكان سبب عزله أن سعداً كان اقترض مبلغاً من المال من بيت المال الذى يشرف عليه ابن مسعود . . فلما جاء وقت السداد طالبه ابن مسعود برد المبلغ . . فطلب منه سعد إمهاله بعض الوقت . . ولكن ابن مسعود أبى ذلك . . فتشابكا فى مشادة كلامية . . وهم سعد أن يدعو عليه . . وكان مستجاب الدعاء . . فقال له ابن مسعود:

- ويلك قل خيراً ولا تلعن .

ورد سعد :

- والله لولا اتقاء اللّٰه لدعوت عليك دعوة لا تخطئك .

وعلم الخليفة بذلك فأمر بعزل سعد . . وظل ابن مسعود فى مكانه وقال البعض أن السبب فى عدم عزل ابن مسعود يرجع إلى أنه كان يرعى أغنام عقبة بن أبى معيط فى طفولته . . أى أنه على صلة ببنى أمية . .

ولم يكن عزل سعد له من المبررات القوية التى تدعو إلى العزل . . فقد كان أثير عند رسول اللّٰه . . وكان عندما يراه عليه الصلاة والسلام يحييه قائلاً:

« هذا خالى . . فليرنى امرؤ خاله! ».

ويوم أحد . . جاهد سعد جهاد الأبطال . . فافتداه الرسول بأبويه .

« أرم سعد . . فداك أبى وأمى ».

وسعد كان نظيف اليد . . ولا يمكن أن يقبل مالاً حراماً . . وكان سيؤدى هذا الدين الذى اقترضه لا محالة . . والمسلمون يعرفون تماماً عظمة سعد يوم إسلامه . . فقد كان يحب أمه حباً شديداً . . وكانت أمه تعرف عنه ذلك . . وقررت الصوم حتى الموت إذا لم يعدل سعد عن إسلامه . . يومها ذهب سعد إليها وقال لها:

- تعلمين والله يا أماه . . لو كانت لك مائة نفس فخرجت نفساً نفساً ما تركت دينى هذا لشئ . . فكلى إن شئت أو لا تأكلى.

وأمام هذا الإصرار أذعنت للأمر وأنهت صيامها . . ومرت الأيام . . وتم فتح فارس على يد سعد . . وولاه عمر أمر الكوفة ، وفى الكوفة لم يجد أهلها فيه ما يعيبه . . إلا أنهم اتهموه بتهمة مضحكة وهذه التهمة هى عدم إجادته الصلاة !!.

وعندما يذهب إلى المدينة ويسأله الخليفة فى ذلك . . وهو يعلم أنه يصلى كما كان الرسول يصلى . . ولكن حتى يحقق بنفسه . . ويعرف ما وراء هذه الشكوى . . يعلم عمر أن الشكوى لا معنى لها . . ويطلب إليه أن يعود إلى الكوفة . . ولكنه يرفض أن يعود إلى قوم يزعمون أنه لا يحسن الوضوء . .

وها هو الرجل يعود إلى الكوفة فى عهد عثمان . . ثم يعزله عثمان . . ويحل محله الوليد بن عقبة . . ولقد كافح الوليد . . ووطد دعائم الحكم هناك . . ولكنه كان مكروهاً من الكوفيين . .

فادعوا أنه يشرب الخمر وأنه يؤمهم للصلاة وهو فى حالة سكر . . وقد استدعى عثمان الوليد إلى المدينة وجلده لشربه الخمر وعزله . . بعد أن شهد شاهدان من الكوفة عند عثمان . . عندما سألهما:

- أتشهدان أنكما رأيتماه يشرب . .

فقالاً : لا . . ولكن اعتصرناها من لحيته وهو يقئ الخمر ! .

ومعنى هذا أن عثمان ما ولى الوليد إلا لقرابته منه بغض النظر على أنه يصلح لتولى حكم الناس أم لا . . فهو ليس قدوة صالحة . . ولا هو يصل إلى مرتبة سعد بن أبى وقاص الذى اعتزل الحياة السياسية بعد ذلك . . ولم يشارك فى الفتنة التى اندلعت بين المسلمين . . وعندما كان بعض الناس يشيرون إليه أن يأخذ دوره فى معترك الأحداث . . كان يرفض أن ينضم إلى فريق من المسلمين دون فريق . . فالفتنة طاغية . . وقال كلمته الرائعة :

- أريد من مائة ألف سيف . . سيفاً واحداً . . إذا ضربت به المؤمن لم يصنع شيئاً . . وإذا ضربت به الكافر قطع .

وعندما عاتبه معاوية فيما بعد . . لأنه لم ينضم إليهم . . أى إلى بنى أمية ضد عليٍّ . . قال له:

- ما كنت لأقاتل رجلاً (عليٍّ) قال له رسول اللّٰه :«أنت منى بمنزلة هارون بن موسى إلا أنه لا نبى بعدى».

وودع الرجل العظيم الحياة دون أن يشترك فى هذه الفتنة التى اندلعت وتركت على التاريخ الإسلامى بصماتها .

ولكن من الذى تولى بدل الوليد بن عقبة ؟ هل ولى عثمان رجلاً من المهاجرين أو الأنصار الذين لهم جهادهم المشرف .. وتاريخهم النظيف فى الإسلام .. إنه لو فعل ذلك لتغيرت نظرة الناس إليه .. ولاختفى الاتهام الذى كان يوجه إليه أنه يؤثر ذوى قرباه عن أصحاب رسول اللّه ! ولكنه ولى سعيد بن العاص .. ولم يكن له تاريخ..

* * *

روافد الفتنة

إن الانقلاب على عثمان رضى اللّٰه عنه . . ومحاولة النيل منه والتشكيك فى حكمه . . وتغيير الأوضاع بصورة أو بأخرى لم يقع فجأة . . ولم يأت بغتة . . ولكن هناك روافد كثيرة . . تجمعت فى النهاية وأصبح لها من القوة ما جعل من العسير وقف اندفاعها . . أو أصبح من الصعب وقف تيارها.

بعض الظروف التى أدت إلى قيام الفتنة لم يكن لعثمان يد فيها . . وبعضها الآخر كانت الظروف أقوى منه . . ثم هناك أسباب تقع مسئوليتها عليه ما فى ذلك شك.

وكان بداية الطعن فى عثمان . . عقب استشهاد الخليفة العظيم عمر بن الخطاب . . فقد أسرع ابنه عبيد اللّٰه فقتل الهرمزان . . وهو يعتقد أن له يداً فى مؤامرة قتل أمير المؤمنين وخاصة أن البعض شهد بأنه رأى الخنجر الذى طعن به أمير المؤمنين من قبل مع الهرمزان . . مما أثار ثائرة عبيد اللّٰه بن عمر . . فأسرع بقتل الهرمزان . . والهرمزان هذا كان قائداً فارسياً وهزم . . وجئ به إلى المدينة فأعلن إسلامه . . وعاش بها . . وقد رأى بعض الصحابة رضى اللّٰه عنهم . . ومنهم علىٌّ بن أبى طالب أن عبيد اللّٰه يستحق القتل قصاصاً من الرجل الذى قتل بلا بينة . . كما أنه فعل ما فعل

من تلقاء نفسه دون أن يخطر ولى الأمر الذى له حق المحاكمة والقصاص . . ورأى البعض الآخر وعلى رأسهم عمرو بن العاص ألا يقتل ابن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب اليوم . . وقد قتل والده بالأمس . . ورأى البعض الآخر أن عثمان رضى اللّه عنه لم يكن قد تولى الخلافة بعد . . فهو فى حل من هذه المشكلة . . ولكن يبدوا أن عثمان رضى اللّه عنه . . لم يشأ أن يبدأ حكمه بقتل ابن عمر . . فدفع له الدية . . وحل هذا الإشكال .

ولكن هذا الحل لم يرض به البعض على أساس أنه لا تهاون فى حد من حدود الله . . مهما كانت صفة الجانى . . ولو أن ما حدث قد حدث أيام عمر لاقتص من الجانى . . وأقام عليه الحد . . حتى لو كان ابنه نفسه . . ولكن عثمان دفع الدية كما قلنا . . ولم يرض بذلك كثير من الناس . . ومنهم علىٌ بن أبى طالب . . حتى أن شاعراً وهو زياد بن لبيد الأنصارى كان ينشد بهذه الأبيات من الشعر كلما رأى عبيد اللّه بن عمر :

ألا يا عبيد اللّه ما لك مهرب

ولا ملجأ من ابن أروى ولا خفر

أصبت دما والله فى غير محله

حراماً وقتل الهرمزان له خطر

على غير شئ غير أن قال قائل

أتتهمـون الهرمـــزان على عمر

فقال سفيه والحوادث جمة

نعم أتهمه قد أشار وقد أمر

وكان سلاح العبد فى جوف بيته

يقلبها والأمر بالأمر يعتبر

وقد قال زياد فى عثمان عندما اشتكاه عبيد اللّه بن عمر إلى الخليفة . . من تعرضه له بهذا الشعر :

أبا عمرو عبيد اللّه رهن

فلا تشكك بقتل الهرمزان

أتعفو إذا عفوت بغير حق

فما لك بالذى تحكى يدان

وأمر الخليفة فأحضر زياداً وطلب منه عدم التعرض لعبيد اللّه . . وأمره أن يلتزم حدوده وعنفه .

* * *

وكان من الأسباب الأخرى التى أثارت البعض ضده توليه عبدالله بن أبى سرح بدل عمرو بن العاص . . وقد أوغر ذلك صدر ابن العاص فهو الذى فتح مصر وأزال عنها الحكم الرومانى . . وهو أيضاً الذى هزم الروم مرة أخرى عندما عادوا واحتلوا الإسكندرية . . وكان عمرو يعرف أن المصريين يكرهون الروم لأنهم أرهقوهم بالضرائب فخفف من عبء الضرائب عنهم . .

فأحبوه.. وكان عثمان يرى أن ما يأتى من مصر لا يتناسب مع خيراتها . . فطلب من عبد الله بن سعد بن أبى سرح أن يتولى إدارة أموال مصر . . على أن يظل عمرو حاكماً لمصر . . واختلف عمرو وعبداللَّه . . اشتكى عبداللَّه بن أبى سرح فعزل عثمان عمرو. . وأصبح عبدالله بن سعد مسئولاً عن كل أمور مصر . . وذلك أوغر صدر عمرو بلا شك . . كما أن تاريخ عبدالله بن أبى سرح لم يكن مشرفاً . . فقد أسلم عبداللَّه بن سعد بعد أن هاجر إلى المدينة . . وأصبح من كتاب الوحى . . ثم عاد فارتد عن الإسلام وهرب إلى مكة . . ثم تقول على الرسول وادعى أنه كان يصرف النبى كما يريد . . وأنه كان يكتب الوحى ثم يغير فيه . . وقال لأهل مكة كان يملى على (عزيز حكيم) فأقول أو عليم حكيم فيقول نعم كلٌ صواب . . وغضب النبى وأباح دمه ولو كان متعلقاً بأستار الكعبة . . ودخل المسلمون مكة . . وفر عبداللَّه هارباً . . ولأنه كان أخاً لعثمان فى الرضاعة فقد أخذه عثمان للنبى ليتشفع له عنده. . وصمت الرسول لعل أحد أصحابه يقوم فيقتله . . ولم يفهم أحد من الحاضرين مغزى صمت النبى . . فلما طال الصمت ولم يقم أحد بقتله عفا النبى عنه إكراماً لعثمان . . وقال لأصحابه:

« ما صمت إلا ليقوم إليه بعضكم فيضرب عنقه ».

عندئذ سأله أحد الأنصار :

- هلاّ أومأت يا رسول اللّه.

فرد النبى عليه الصلاة والسلام:

«لا ينبغى للنبى أن يكون له خائنة الأعين».

ومن ذلك اليوم عاد عبدالله بن سعد إلى الإسلام .. وأبلى فيما بعد ذلك بلاء حسناً .. ولكن الناس لم تنس له هذا الموقف .. ولم تنس أيضاً أنه أخ لعثمان واعتقدوا أنه ما ولاه أمر مصر إلا لهذه القرابة .. رغم أن عمر بن الخطاب قد استعمله قبل ذلك.

وذات يوم دخل عمرو بن العاص على الخليفة .. وكان قد وصله ما يخص الخلافة من خراج مصر .. فعرض الأمر على عمرو بن العاص وقال له:

- هل تعلم يا عمرو أن اللقاح درت بعدك .

فقال عمرو:

- ولكن فضالها هلكت .

أى أن الزيادة التى أدخلت على خزانة بيت المال كان على حساب المصريين الذين أرهقهم عبدالله بكثرة الضرائب.

ولم يشفع لعبد الله بن أبى سرح فتحه لأفريقيا وانتصاراته على الروم فى معركة ذات الصوارى .. ومعاركه الأخرى .. وتذكروا فقط أنه أخ لعثمان فى الرضاع .. وأنه ما ولاه إلا لهذه الصلة .. كما لم ينسوا له أنه عزل أبا موسى الأشعرى عن البصرة بعد أن تولى أمرها ثلاث سنوات .. وولى عبدالله بن عامر وكان عمره

خمسة وعشرين سنة وهو أيضاً من بني أمية . . ولم يشفع للناس ما حققه من انتصارات أيضاً في معاركه التي سبق أن أشرنا إليها .

* * *

وكان هناك سبب آخر . . أو رافد آخر . . وهو أن عثمان أباح لكبار الصحابة التنقل بين الأمصار . . وكان عمر يمنع هذا تماماً حرصاً عليهم . . وعلى المسلمين . . بألا يفتنوا أحداً . . ولا يفتنوا هم أنفسهم بالدنيا . . فتنقلوا بين الأمصار . . وتحقق لبعضهم ثروات طائلة . . كما أن عثمان أباح لهم أيضاً أنه من يريد أن يستبدل أرضه في الأمصار بأخرى في الحجاز فليفعل . . وكان لهذا القراره أثره الكبير . . فقد فرح به الأثرياء في مكة والمدينة . . وزاد ثراؤهم . . . وما يتبع هذا الثراء من ترف . . فعرفت المجتمعات في الجزيرة العربية الغناء والطرب . . مما أثار عليهم حفيظة الفقراء . .

وإذا كان عمر بن الخطاب يولي الناس شئون الأمصار على حسب تقواهم . . ومركزهم من رسول الله ﷺ فإنه لم يول أحداً من الناس بسبب صلة القرابى له . . بل إنه عندما طلب منه البعض أن يخلفه في منصب الخلافة ابنه عبدالله رفض ذلك . . وجعله من أعضاء الشورى . . مجرد صوت ولكن ليس له الحق في تولي الخلافة . . ثم أخذ الناس بالشدة لأنه يعرف تماماً نفسية أهل مكة وتطلعاتهم ونعراتهم القبلية . . وقال قولته الشهيرة :

– إنما مثل العرب مثل جمل أنف اتبع قائده .. فلينظر قائده حيث يقوده .. وأما أنا فورب الكعبة لأحملنكم على الطريق.

ولكن عثمان بدل أن يأخذهم بهذا الحزم فتح لهم الطريق أمام الثراء الفاحش .. فسمعنا أن بعضهم كون ثروات تقدر بالملايين بلغة هذا العصر .. وأنه كانت لديهم ثروات من الذهب تقطع بالفئوس .. وقرأنا عن من كانوا منهم يملكون القصور فى الشام ومصر والحجاز .. ونرى عثمان أيضاً لضعفه أمام القرابة عندما يعزل الوليد بن عقبه .. يولى بدله سعيد بن العاص .. وهو أموى أيضاً .. ولم يشفع للناس شجاعته ولم يعجب أهل الكوفة منه اعتداده الشديد بنفسه بانتمائه لقريش .. وكأن قريش هى سيدة الدنيا .. مع أن الإسلام سوّى بين الجميع..

لم يفرق بين قرشى وغير قرشى .. ولا مسلم عربى وغير عربى.. فالكل جميعاً فى شريعة الإسلام سواء .. فلما سمعوا ذات يوم من سعيد فى أحد جلساته: إنما سواد الكوفة بستان قريش.. لم يعجبهم هذا الكلام .. وثاروا عليه .. وضربوا رئيس الحرس عندما حاول أن يناههم عن هذه المناقشة الحادة لهم مع الوالى .. فقد كانوا يرون أنه ليس لقريش فضل عن الآخرين .. بل الذين جاهدوا مع النبى فى غزواته .. وكانوا أسبق من بعض الذين أسلموا من قريش من بعد الفتح .. أفضل من هؤلاء الطلقاء

الذين لم يسلموا إلا بعد أن دخل الإسلام عليهم بالقوة فأسلموا خوفاً أو طمعاً . . فما بال سعيد يضع نفسه فوق الرقاب لهذا النسب من قريش . . وبعث سعيد إلى الخليفة يطلب نفى بعضهم عن الكوفة لأنهم أصحاب فتنة . . ووافق الخليفة على نفيهم إلى العراق . . وكان هذا القرار غريباً بالفعل . . لأنهم اعترضوا على رأى الحاكم بأن أهل قريش ليس لهم فضل على سائر المسلمين.

والإسلام يتيح لهم حق مناقشة الحاكم ومساءلته . . والإسلام كفل للناس أن يناقشوا الحاكم فى أمور حياتهم . . فالحاكم فى الإسلام ليس ظل اللّه على الأرض . . ولكنه من الناس . . والأمر بينهم شورى والشورى تستدعى النصيحة . . والنصيحة ليست خروجاً عن الطاعة . . وهؤلاء الناس الذين اعترضوا على سعيد بن العاص كانوا مقرين بخلافة عثمان . . فلماذا يصدر الأمر بنفيهم . .

وفى العراق حاول معاوية بن أبى سفيان أن يستميلهم . . وكان معاوية من أقوى حكام الأمصار . . فإن حكمه الطويل للشام طوال فترة حكم عمر كفل له سيطرته على هذا الإقليم . . بل لقد اتسع سلطانه أيام عثمان فبعد أن أصبح حاكماً على دمشق والأردن أيام عمر ضمت إليه فلسطين وحمص أى أنه أحكم قبضته على الشام كلها . . وكان معاوية واسع الحيلة . . ذكيا . . يجيد قيادة الناس وهو صاحب القول المشهور : لو كان بينى وبين أحد من الناس شعره ما قطعت . . إذا أرخى شددتها . . وإذا شد أرخيتها . .

ورجل بهذا الذكاء والدهاء كان قادراً أن يستميل إليه القلوب . . بالعطاء حيناً . . وبالتهديد حينا آخر .

وكان على معاوية أن يحل مشكلة هؤلاء الساخطين من الكوفة وعلى رأسهم مالك الأشتر . . ولكنهم ناقشوه واتحدوا عليه . . وأخذهم هو باللين حيناً وبالشدة أحياناً . . ولكنه ضاق بهم فى النهاية ذرعاً . . يقول الرواة . . إن معاوية قال لهم :

- إنكم قوم من العرب لكم أسنان . . ولكم ألسنة . . وقد أدركتم بالإسلام شرفاً وغلبتم الأمم وحويتم مراتبهم ومواريثهم . . وقد بلغنى أنكم نقمتم قريشاً . . وأن قريشاً لو لم تكن عدتم أذلة كما كنتم . . إن أئمتكم لكم إلى اليوم جنة فلا تسدوا جنتكم . . وأن أئمتكم يصيرون لكم على الجور ويحتملون منكم المئونة . . واللّه لتنتهن أو ليبتلينكم اللّه بمن يسومونكم ثم لا يحمدكم على الصبر . . ثم يكونون شركاءكم فيما جررتم على الرعية فى حياتكم وبعد موتكم .

ولكنهم لم يعجبهم هذا الكلام .

- ولم يعجبهم افتخاره بالانتماء إلى قريش . . وجادلوه جدالاً طويلاً . . وعرف أنه لا جدوى من النقاش معهم . . فقد سيطرت على عقولهم الفتنة . . وأنه من الصعب عليه إقناعهم بالعدول عما يدور فى رءوسهم وأخبرهم أنهم ليسوا فى الكوفة :

- مه إن هذه ليست بأرض الكوفة . . واللّه إن رأى أهل الشام

ما تصفون وأنا أمامهم ما ملكت أن أنهاهم عنكم حتى يقتلوكم . . فلعمرى أن صنيعكم ليشبه بعضه بعضاً.

وأرسل إلى عثمان برأيه فيهم .. وأنه لا أمل يرجى منهم ولا من صلاحهم فأمره عثمان أن يسيرهم إلى حمص عند عبدالرحمن ابن خالد بن الوليد . . وأخذهم عبدالرحمن بالشدة التى لا هودة فيها . . فإذا بهم يخافون أشد ما يكون الخوف من عبدالرحمن . . فقد قال لهم عبدالرحمن بن خالد بن الوليد. . وقد عرف طبائعهم:

- يا آله الشيطان لا مرحباً بكم ولا أهلاً . . قد رجع الشيطان محسوراً . . وأنتم بعد فى نشاط . . خسر واللّه عبدالرحمن إن لم يؤدبكم يا معشر من لا أدرى أعرب هم أم عجم . . لا تقولوا لى ما بلغنى أنكم قلتم لمعاوية أنا ابن خالد بن الوليد . . أنا ابن من عجمته العاجمات . . أنا ابن فاقئ عين الردة . . واللّه يا فلان لئن بلغنى أن أحداً ممن معى دق عنقك ثم عنقك ثم غمصك لأطيرن بك طيرة بعيدة المهوى.

فخافوا منه أشد ما يكون الخوف . . لقسوته الشديدة عليهم . . حتى أنهم أعلنوا له أنهم تابوا وندموا على ما قاموا به فى حق الخليفة وعلم بذلك عثمان فأمر برجوعهم إلى الكوفة وكان سعيد ابن العاص قد ذهب للمدينة للتشاور مع الخليفة . . وعند عودته رفض مالك الأشتر وزعماء الكوفة عودته . . بل قابلوه فى الطريق

عند القادسية وكانوا حوالى ألف شخص كما يقول بعض الرواة وهددوه بالقتل لو ظل مصمماً على دخول الكوفة . . فآثر السلامة وعاد إلى المدينة . . ونصب الخليفة بدله أبو موسى الأشعرى الذى كان أهل الكوفة يظهرون الحب له . . وكتب إليهم رسالة يقول فيها :

- أما بعد . . فقد أمرت عليكم من اخترتم . . وأعفيتكم من سعيد . . والله لأقرضنكم عرضي . . ولأبذلن لكم صبرى . . ولأستصلحنكم بجهدى فلا تدعوا شيئاً أحببتموه . . لا يعصى فيه الله إلا استعفيتكم منه أنزل فيه عند ما أحببتم . . حتى تبلغوا ما تريدون .

وتولى أبو موسى أمر الكوفة . . وطلب من الناس أن يلتزموا الطاعة . . وألا يفرقوا أمر الجماعة .

* * *

ومن الروافد الأخرى التى كانت سبباً فى شق عصا الطاعة عن عثمان . . هو عبدالله بن سبأ الذى أطلق عليه الرواة ابن السوداء . . وهو يهودى من اليمن ادعى الإسلام ليكيد له ولأهله . . وقد ذهب إلى البصرة عندما كان ابن عامر والياً عليها . . وما كاد يسمع بآرائه الفجة حتى أخرجه من البصرة . . وعندما ذهب إلى الكوفة طرد منها أيضاً وتنقل بين الحجاز والشام . . ثم استقر فى مصر حيث

أخذ بنشر آراءه الهدامة . . التى بلبل بها أفكار البعض . . فكان يقول :

– عجبت ممن يصدق برجوع المسيح ولا يصدق برجوع محمد .

وكان يردد : إذا كان لكل نبى وحى، ووحى محمد هو علىٌّ . . وبالتالى فعلىٌّ أوْلى بالخلافة وأحق من الآخرين . . وقد بلبت هذه الآراء أفكار بعض الناس . . وكانت سبباً من أسباب الفتنة التى ظهرت فى خلافة عثمان . . وإذا كان هذا الرجل الذى كان يكيد للإسلام متستراً تحت رداء اعتناقه للإسلام . . فإن خطورته لم تكن بالصورة التى صورها بعض الرواة . . لقد بث سمومه بالفعل فى المجتمع الإسلامى . . ولكن ليست بهذه الدرجة من الخطورة التى رددها الرواة . . وإلا لكان من اليسير على أى حاكم من حكام الإمارات التخلص منه بسهولة . . سواء فى البصرة أو الكوفة أو الشام أو مصر . . ولكنه كان من العوامل المساعدة فى إثارة القلاقل والاضطرابات على كل حال . . ولكن ليس من المعقول أنه هو الذى كان وراء ثورة أبى ذر الغفارى عندما أعلن صيحته المدوية للرجوع إلى مبادئ الإسلام القويمة . . يوم رأى الناس مقبلين على الدنيا يقتنون الضياع والجوارى، ويسكنون القصور ، ويبتعدون عن روح الإسلام . . لأن هذا الصحابى الجليل الذى درس الإسلام وفهم أصوله على يد النبى عليه الصلاة والسلام . . وكان من المقربين إليه . . ليس من المعقول ولا من المنطق أن يتأثر بدعوة عبدالله بن سبأ أو ابن السوداء كما كانوا يطلقون عليه .

فأبو ذر ما كان له وهو الصحابى الجليل أن يتأثر بأحد . . وهو الذى سبق أن شتم كعب الأحبار . . وهو أحد اليهود الذين أعلنوا إسلامهم . . يوم تناقش مع عثمان عن واجب الأغنياء على الفقراء . . وأن عليهم ألا يكتفوا بالزكاة . . بل لابد أن يؤدوا الصدقات . . يومها قال كعب الأحبار متدخلاً فى الحديث :

- من أدى الفريضة فحسبه .

عندئذ قال له أبو ذر :

- يا ابن اليهودية . . ما أنت وهذا . . أتعلمنا ديننا .

ثم وجأه بمحجنه ! .

رجل كهذا لا يثق فى كعب الأحبار لأنه كان يهودياً واعتنق الإسلام لا يمكن أن يكون صدى لابن السوداء أو لغيره . . ولكن ما هى قصة أبى ذر ؟ وما هى قصة ثورته على الأغنياء ؟ وكيف أدت هذه الثورة إلى زعزعة الناس بحكم عثمان؟

لا بد أن نعرف صورة عن هذا الصحابى الجليل . . حتى نعرف مدى تأثيره فى الناس . . ونعرف دعوته التى كانت للّه ورسوله . . ليس طمعاً فى جاه . . ولا جرياً وراء منصب . . ولا سعياً وراء دنيا . . فالرجل لم يجد فى أى من هذه الأشياء بغيته . . ولكن بغيته كانت للّه ورسوله . .

لقد أسلم أبو ذر والإسلام فى أول ظهوره . . وكان من قبيلة

غفار . . التى كانت مشهورة بالنهب والسلب . . حتى أن النبى عليه الصلاة والسلام ابتسم وأبو ذر يعلن إسلامه وقال:

« إن اللّه يهدى من يشاء».

ويكتشف النبى من أول يوم معدن هذا الإنسان . . كما يكتشف الناس جميعاً معدنه . . فما كاد يعلن إسلامه حتى يخرج إلى الناس فى مكة . . ويذهب إلى البيت الحرام . . وهو يعلن إيمانه على ملأ من الجميع . . حتى أن أهل مكة ضربوه ضرباً مبرحاً حتى أغمى عليه . . ولم ينقذه من أيديهم سوى العباس عم النبى . . بعدها أمره النبى عليه الصلاة والسلام أن يعود إلى قبيلة (غفار) . . وتمضى الأيام . . وقد أصبح الإيمان فى قلب هذا الرجل سراجاً يضئ له معالم الطريق . . فإذا به يدعو للإسلام فى قبيلته . . وقبيلة أخرى هى قبيلة أسلم.

وعندما يهاجر النبى الكريم إلى المدينة . . يشاهد الناس ذات يوم عجباً . . إن قبيلة غفار وأسلم قد جاءت تعلن مبايعتها للنبى عليه الصلاة والسلام . . فقد أسلم أهل القبيلتين جميعاً بفضل هذا الثائر الداعية أبى ذر الغفارى . . حتى أن الرسول قال عنه:

« ما أقلت الغبراء وما أظلت الخضراء أصدق لهجة من أبى ذر».

كلمات رائعة تعطى لهذا الإنسان الكريم حقه . . وتضعه فى مكانه السليم .

وكأن النبى علـيه الصلاة والسلام كان يقرأ المستقـبل عندما سأل هذا الصحابى الجليل يوماً:

« يا أبا ذر كيف إذا أدركك أمراء يستأثرون بالفيء؟ ».

أجاب أبو ذر:

- إذاً والذى بعثك بالحق لأضربن بسيفى!.

فقال له الرسول العظيم:

« أفلا أدلك على خير من ذلك، أصبر حتى تلقانى ».

وتمضى أيـام الرسول الكريم .. بـعد أن بلّغ الـرسالة .. وأدى الأمانة وخلـق من أضعف مجتمعـات الدنيا أقوى مجتمـعاتها .. ويحمـل الراية الصديق .. وكـان امتداداً لأيام رسول الـلّه .. ثم يخلفه عمـر فإذا به يسير سيرة الرسول .. وتجتـاح جيوشه الفرس والروم .. وترتـفع راية التوحيـد فى كل مكان .. فـإذا ما أشارت أصابع الانبـهار إلى الخليفة وجدوه إنـساناً رغم قوته متـواضعاً إلى أقصى حدود التواضع .. ورغم شدته ليـناً أشد ما يكون اللين على الفقراء والمساكين .. ورغم أنه ملك كنوز كسرى وقيصر يعيش على الكفـاف .. فشعاره العدل والـرحمة .. وسارت الحياة فـى أيامه أمجد لحظات التـاريخ تألقاً ومنهاجاً .. وأبو ذر الصـحابى الجليل يرقب ذلك كله بأعجاب .. ليس له فى الدنيا مطمع ولا مأرب .. أنه يعبد اللّه ويجاهد فى سبـيله .. ويغادر الفاروق الحياة إلى أكرم

رحاب . . فإذا الدنيا غير الدنيا . . والحياة غير الحياة . . والناس غير الناس؟ .

ماذا حدث؟

أليس هؤلاء أصحاب الرسول وأبناؤهم وأحفادهم ؟

أليس هؤلاء هم الذين نزل القرآن فيهم؟

ما لهم قد فتنتهم الدنيا ؟ . . فتكالبوا على المال والضياع والجوارى؟ .

مال الترف أفسد عليهم حياتهم؟

إن الخليفة الجديد سمح لكبار الصحابة بالتنقل بين الأمصار فزادت ثرواتهم إلى حد يفوق التصور؟

وبعض الولاة أصبحت لهم طموحات ضخمة وعلى رأسهم معاوية بن أبى سفيان؟

هل يسمع كل هذا الحديث ويصمت . . وهو الذى أعلنها مدوية وسط ظلام الجاهلية . . يعلن سخطه على مجتمع يرى النور منبثقاً على يد محمد عليه الصلاة والسلام ويصم أذنيه . . ويغلق عينيه؟

لقد قرر الذهاب إلى الشام . . وهناك هاله أن يرى المال وقد أصبح سيداً . . والناس وقد أصبحوا عبيداً للمال . . ومعاوية يتخذ من المال وسيلة لإغراء الناس للالتفاف حوله لتحقيق طموحاته العريضة . .

فإذا به يردد فى كل مكان . . فى المساجد . . والبيوت . . والطرقات « بشر الكانزين الذين يكنزون الذهب والفضة . . بمكاو من نار تكوى بها جباههم وجنوبهم يوم القيامة».

ويلتف الناس حوله . . ومعاوية يرى ذلك فيشعر بالضيق . . وهو فى نفس الوقت يعرف للرجل مكانته من رسول اللّه . . وذات يوم يحدث الناس فى وجود معاوية حاكم الشام ويقول:

﴿ وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٤﴾ يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [التوبة:٣٤-٣٥]

وعندما يقول له معاوية أن هذه الآية نزلت فى أهل الكتاب يرد عليه أبو ذر . . بأن هذه الآية أنزلت لأهل الكتاب والمسلمين أيضاً.

ولم يجد معاوية مفراً أن يرسل لعثمان فى أمر أبى ذر متهماً أياه بأنه يفسد الناس فى الشام. .

فاستدعاه عثمان إلى المدينة . .

ويحدد إقامته . . ولكن برفق من يعرف للرجل قدره . . ويفضل أبو ذر أن يعيش للّه فى (الربذة) . . فهو سعيد بحياته تلك المتقشفة . . وكان يملك بردتان . . إحداهما يلبسها يوم الجمعة . . والأخرى لباقى الأسبوع . . وعنزة يحلبها . . وأتان يركبها!.

ويقول عن هذه الثروة : أى نعمة أفضل مما نحن فيه!!.

ولكن هذا الصحابى الجليل . . وهو يعلن سخطه على أصحاب الثروات . . وعلى هؤلاء الذين أغرتهم الدنيا مع أنها زائلة . . لم ينس وصية رسول اللّٰه الكريم له:

« أصبر حتى تلقانى» .

فلم يرفع سيفاً ضد الحاكم . . ولكنه أراد أن ينبه الناس إلى المنحدر الرهيب الذين كادوا يسقطون فيه بفضل تكالبهم على الدنيا . . ولكنه أبى أن يكون سبباً فى الفتنة أو سبباً لتفرقة كلمة المسلمين . . أو وسيلة للتهجم وقلب حكم عثمان رضى اللّٰه عنه . . فهو الذى قال لوفد قدم من الكوفة كانوا يستحثونه على الثورة ضد عثمان:

- وتاللّٰه لو أن عثمان جعلنى على أطول خشبة أو جبل . . لسمعت وأطعت وصبرت واحتسبت . . ورأيت ذلك خيراً لى . . ولو سيرنى ما بين الأفق إلى الأفق . . لسمعت وأطعت وصبرت واحتسبت ورأيت ذلك خيراً لى . . ولو ردنى إلى منزلى لسمعت وأطعت وصبرت واحتسبت ورأيت ذلك خيراً لى .

وكان عثمان رضى اللّٰه عنه يعرف للرجل قدره . . فعندما بعث إليه معاوية يشكو إليه تصرف أبو ذر . . كانت رسالة عثمان إليه أن يأخذه بالرفق واللين . . كتب لمعاوية كما يروى الطبرى:

- إن الفتنة قد أخرجت خطمها (أنفها) وعينيها ولم يبق إلا أن تثب . . فلا تنكأ القرح . . وجهز أبا ذر إلىَّ . . وأبعث معه دليلاً

وزوده وارفق بهم وكفكف الناس ونفسك ما استطعت فإنما تمسك ما استمسكت.

غير أن اليعقوبى يذكر فى تاريخه عن قصة أبى ذر بعد ذلك وكيف أن عثمان كره منه مواقفه التى قد تفتن الناس فأمر عثمان معاوية أن يحمله على قتب بغير غطاء فقدم المدينة وقد ذهب لحم فخذيه . . فهذه الرواية لا تتفق مع الروايات الأخرى التى قالها الطبرى وابن الأثير وغيرهما . . بأن عثمان ترك أبا ذر -بناء على رغبته- يعيش فى الربذة . . ولم ينفه إليها . . وهذا يتسق مع لين عثمان . . ومعرفته بقدر الصحابى الجليل الذى قال عنه الرسول الكريم . . استناداً إلى ابن عمر:

« ما أقلت الغبراء ولا أظلت الخضراء من رجل أصدق من أبى ذر ».

وروى أبو هريرة نفس الحديث . . وفيه أيضاً قول الرسول:

« من سره أن ينظر إلى تواضع عيسى بن مريم فلينظر إلى أبى ذر».

وقد مات أبو ذر رضى الله عنه فى عام ٣٢ هجرية فى الربذة. . عندما حضرته الوفاة . . ولم يكن معه إلا زوجته وابنته وغلامه . . بكت زوجته وهى ترى زوجها يموت وحيداً وليس عنده الكفن . . فقال لها أبو ذر:

- لا تبكى . . فإنى سمعت رسول الله ﷺ ذات يوم وأنا عنده

فى نفر من أصحابه يقول : « ليموتن رجل منكم بفلاة من الأرض تشهده عصابه من المؤمنين».

وكل من كان معى فى ذلك المجلس مات فى جماعة وقرية ، ولم يبق منهم غيرى . . وهأنذا بالفلاة أموت . . فراقبى الطريق فستطلع علينا عصابة من المؤمنين . . فإنى واللّه ما كذبت ولا كذبت.

وخرجت روحه إلى بارئها . . ونظرت زوجته فإذا بقافلة قادمة وعلى رأسها الصحابى الجليل عبدالله بن مسعود . . ويعرف أن أبا ذر قد مات فيذكر حديث رسول اللّه ﷺ فى أبى ذر . . عندما لم تسعفه دابته إلى لحاق رسول اللّه أثناء ذهابه لتبوك . . ويراه النبى من بعيد قادماً على قدميه . . فيقول:

« يرحم اللّه أبا ذر . . يمشى وحده . . ويموت وحده . . ويبعث وحده».

وتسيل الدموع من عينى ابن مسعود . . ويقوم ومن معه بدفنه فى الربذة . . بعد أن غسلوه وصلوا عليه . . وذهب ابن مسعود وأخبر عثمان بوفاة أبى ذر . . فضم ابنته إلى عياله وقال:

- يرحم اللّه أبا ذر ويغفر له نزوله فى الربذة.

***

ومن الروافد التى مهدت للثورة على عثمان أيضاً . . أن هناك من الصحابة فى مكة والمدينة من كان يريد أن يكون له دور فى الحكم . . وأن يتبوأ مكانة تليق بهم وبسابق جهادهم، كما أن شباب الأنصار والمهاجرين كانوا يرون أيضاً أنهم يجب أن يكون لهم دور فى الامبراطورية الإسلامية المترامية الأطراف . . ولكنهم وجدوا الباب يكاد يكون مسدوداً . . لأن الخليفة يؤثر عليهم بنى أمية . . وأنه ضعيف أمام ذوى القربى . . وأنهم يتبؤون أعلى المناصب رغم أن هناك من هو أقدر منهم على تحمل هذه المسئوليات.

كما أن التذمر بدأ فى كبار الصحابة منذ تولية عثمان حينما عزل عمرو بن العاص . . وهو القائد الذى فتح مصر . . وكان له دوره الكبير فى الفتوحات . . مما أثار حفيظته ضد عثمان . . والذى بلغ به الأمر عندما طلب عثمان من ولاته فى مصر والشام والكوفة إلى اجتماع لتدارك الموقف بعد أن تسربت الفتنة إلى مختلف الأقطار . . أن قال له عمرو بن العاص :

- أرى أنك قد ركبت الناس بما يكرهون فاعتزم أن تعدل فإن أبيت فاعتزم أن تعتزل . . فإن أبيت فاعتزم عزماً وامض قدماً.

وقد كان حاضراً هذا الاجتماع من ولاة الأمصار عبداللّه بن عامر، ومعاوية بن أبى سفيان، وعبداللّه بن سعد، وأدخل فى المشورة عمرو بن العاص، وسعيد بن العاص.

وبجانب البذور التى بذرها أعيان الكوفة وعلى رأسهم مالك

الأشتر نرى أن فى مصر أيضاً قاد الحركة المناهضة لعثمان، محمد ابن أبى بكر، ومحمد بن أبى حذيفة .. اللذين كانا يؤلبان الناس على عثمان أثناء الغزوات والجهاد ضد الروم .. وكانا يقولان .. إن الجهاد الحقيقى ينبغى أن يكون ضد عثمان نفسه .. لأنه ولى عبدالله بن أبى سرح مصر .. وهو الذى قد أباح النبى دمه لافترائه عليه كذباً .. ولكنه تولى أمر مصر لا لشئ إلا لقرابته من عثمان.

وابتدأت الفتنة تتسرب ببطء .. وترسم طريقها إلى مختلف الأمصار .. وعندما سقط خاتم النبى عليه الصلاة والسلام سنة ٣٠ هجرية من أصبع عثمان بن عفان .. حزن عثمان لذلك أشد الحزن.. فقد سقط هذا الخاتم فى بئر أريس .. ولم يستطع عثمان العثور عليه .. وكان هذا الخاتم فى يد الرسول .. ثم أبى بكر.. ثم عمر.. ساعتها انتشرت الشائعات بأن خاتم الرسول ما ضاع منه إلا لأنه حاد عن طريق رسول الله ..!

وكان خاتم النبى من الفضة .. وكان يختم به الرسائل التى بعث بها إلى ملوك العالم .. وكان مكتوب عليه (محمد رسول الله) واستخدامه بعد الرسول أبو بكر وعمر وعثمان فى شتى الرسائل إلى مختلف الأمصار .

وكان عثمان فى بعض الأحيان يأخذ الناس بالشدة والقسوة التى كانت ليست من طباعه .. فكان يغالى فيها .. وقد تركت ذلك فى نفوس الناس عدم الرضا عليه .. من ذلك مثلاً أنه أمر بضرب عمار بن ياسر حتى أغمى عليه .. ومعروف أن عماراً كان من

أوائل الذين أسلموا وعذبوا فى سبيل الدعوة .. وكانت أمه أول شهيد فى الإسلام .. وكذلك استشهد والده .. وكان رسول اللّه يمر عليهم فى محنتهم ومكة تتوغل فى تعذيب هذه الأسرة فيقول: «صبراً آل ياسر فإن موعدكم الجنة ».

وكان عمار من ضمن الذين انتقدوا عثمان فى سياسته المالية وعدم تفريقه بين الأموال الخاصة والأموال العامة .. فقد قالوا أن بعض أهله يتحلى بحلى من بيت المال .. ووصل ذلك القول إلى عثمان فقال:

- لنأخذ من حاجتنا من هذا الفئ وإن رغمت أنوف أقوام .

وكان هذا الرد غريباً .. ولم يعجب علىٌ بن أبى طالب فقال له:

- إذن تمنع من ذلك .. ويحال بينك وبينه .

وعندما قال عمار بن ياسر :

- أشهد اللّه أن أنفى أول راغم من ذلك .

غضب عثمان وشتمه .. وأمر بسجنه حتى أغمى عليه..

وكان يجب على عثمان وهو يرى أن الرياح الهوج تهب عليه فى كل مكان .. ويرى اعتراض كبار الصحابة أن يقف مع نفسه بعض الوقت يراجعها وينزل إلى رأى الأغلبية .. وخاصة أنه عند اختياره خليفة للمسلمين كان هذا الاختيار مقروناً بشرط أن يسير على هدى السنة الشريفة وسيرة الشيخين (الصديق وعمر) .. ولكنه فى

سياسة تعيينه للولاة لم يسر على هديهما . . بل لعبت العصبية دورها . . حتى كأن عمر بن الخطاب يقرأ الغيب عندما قال له:

- لو وليت أمور المسلمين فلا تجعل بنى معيط وبنى أمية فوق رقاب العباد . . إنه بالفعل جعل من بنى معيط وبنى أمية فوق رقاب العباد . . ناسياً نصيحة عمر من جهة . . كما أنه من جهة أخرى لم يعد يسمع نصيحة أحد . . ويأخذ أى نصيحة كأنها عدوان شخصى عليه . . ومن ذلك مثلاً أن أهل الكوفة أرسلوا رجلاً معروفاً بالتقوى والورع والصلاح وهو عامر بن عبدالله التميمى . . ليلفت نظر الخليفة إلى تردى الأمور والحياة . . وعندما دخل على الخليفة قال له:

- إن ناساً من المسلمين اجتمعوا فنظروا فى أعمالك فوجدوك قد ركبت أموراً عظاماً فاتق الله عز وجل وتب إليها وانزع عنها.

فما كان من عثمان إلا أن قال:

- انظروا إلى هذا فإن الناس يزعمون أنه قارئ ثم هو يجئ فيكلمنى فى المحقرات . . فوالله ما يدرى أين الله .

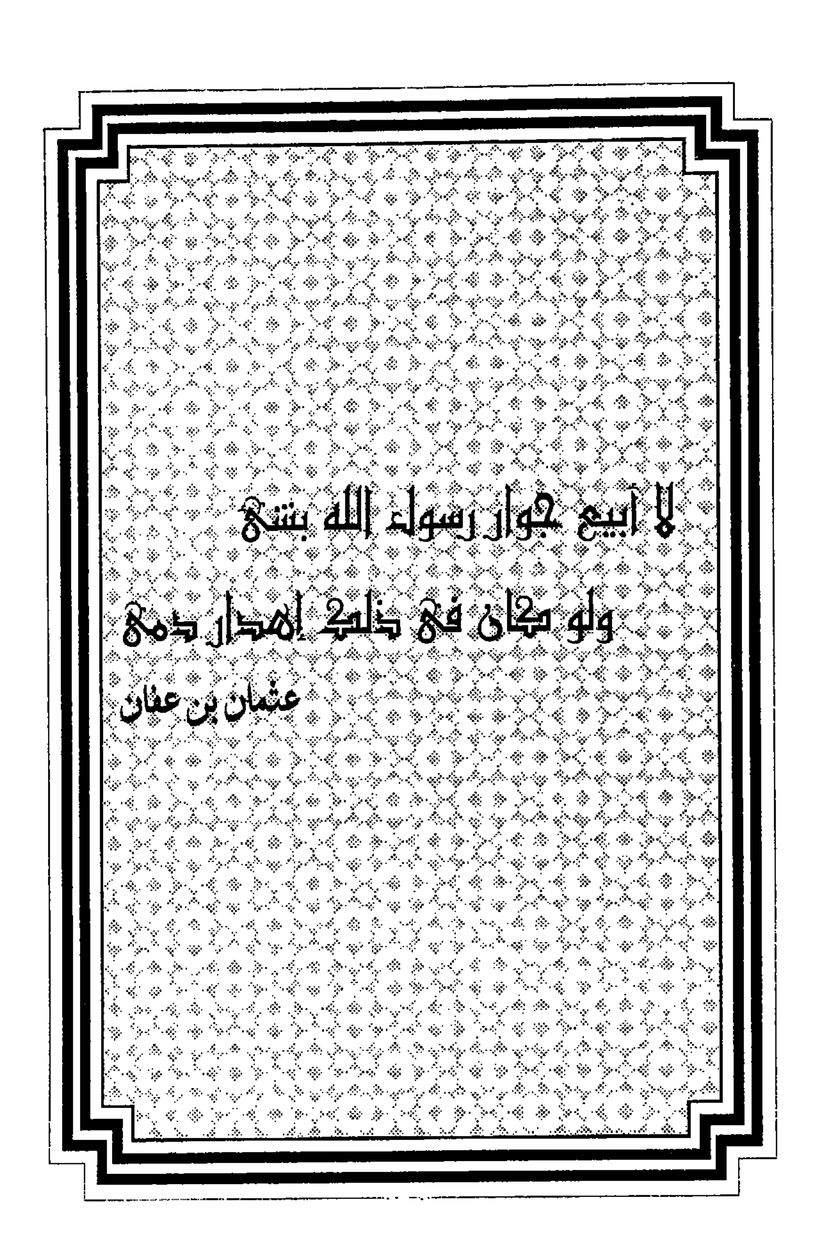
هنا غضب عامر ورد على الخليفة :

- أنا لا أدرى أين الله .

قال: نعم . . والله ما تدرى أين الله.

قال عامر: بل والله إنى لأدرى أن الله بالمرصاد لك.

* * *


لا أبيع جوار رسول الله بشيء
ولو كان في ذلك إهدار دمي
عثمان بن عفان



تـــأزم الأمـــــور

لقد تأزمت الأمور . . وكادت أن تفلت كلها من يد الإمام لتشدده . . وتشدد عماله لكل من يحاول أن يقنع الخليفة بخطأ سياسته وعدم تفريقه بين المال العام والخاص . . وإن كان له أن يتصرف كما يشأ فى أمواله الخاصة . . فليس من حقه أن يتصرف فى الأموال العامة كما يحلو له . . فيعطى من يعطى الأعطيات الكبيرة ولا يريد أن يحاسبه أحد . . معتقداً أنه ما دام قائماً على أمور الناس . . فالحساب للّه وحده . . وليس لأحد أن يحاسبه . . ويغضب أشد الغضب لذلك . . مع أن النبى وهو المعصوم من الخطأ . . وهو الذى لا ينطق عن الهوى كان يتقبل النقد . . ورفض أن يعاقب أعرابياً جلفاً عندما جذبه من ثوبه قائلاً: أعدل يا محمد . . فليس المال مالك ولا مال أبيك!!.

ولم يكن رد النبى عليه الصلاة والسلام سوى قوله:

« ويحك . . فمن ذا يعدل إذا لم أعدل ؟».

لم يعاقب النبى الرجل . . ولم يحبسه . . وكانت رحمة النبى الوسيلة إلى التغلغل إلى أعماق الناس . . وإلى قلوبهم . . ولكن عثمان تشدد فى ذلك تشدداً شديداً كما رأيناه عندما أمر بضرب عمار بن ياسر حتى أغمى عليه . . وضربه مرة أخرى بنفسه عندما

أراد أن يقول رأيه فى أمر من أمور المسلمين . . ولكن هذه السياسة أفزعت الناس . . كما أفزعهم أيضاً أن ظروف العصر قد تغيرت . . وأن أعطيات الناس يجب أن تعطى لمن يستحق فقط . . وعلى الناس أن يعملوا . . وأن يأخذوا ثمرة أعمالهم . . ومعاش الدولة أو مساعدة الدولة يجب أن تكون للذين لا يستطيعون الكسب من ذوى السابقة والجهاد فى سبيل اللّه . . ولو استطاع عثمان أن يقيم سياسته المالية بموضوعية بعيد عن الإسراف . . لتغيرت الأمور كثيراً . . فقد ضاق فقراء المسلمين بالأوضاع . .

الأغنياء ازدادوا غنى . .

والفقراء أصبحوا فى أوضاع صعبة . .

والأمراء من بنى أمية فوق المساءلة . . وفوق العقاب . .

وصحابة الرسول يرون ذلك ويتعجبون . . فهو لا يسمع لهم نصيحة حتى علىّ بن أبى طالب نفسه . . وهو أحد أفراد الشورى . . وابن عم الرسول وزوج الزهراء . . كاد أن يبطش به عثمان . . وحاول العباس إصلاح ما يمكن إصلاحه . . وقد آثر عثمان لقرابته من على ألا يتورط معه ويشتد عليه . . ومع ذلك فقد كان علىّ حريصاً كل الحرص أن يسود فى العالم الإسلامى روح الوفاق . . أن يبتعد شبح الفتنة عن سماء الإسلام . . وأن يعود عثمان كما كان فى بداية حكمه امتداداً لأبى بكر وعمر . . وينشر العدل والتسامح بين الناس بجناحيه . . فيأمن الناس . . ويعيش

الجميع فى إخاء واستقرار . . ولم يكن أمامه وقد رأى أن الأمر أوشك أن يفلت من يد الخليفة أن يذهب إليه نصوحاً . . وحدثه حديثاً طويلاً . . وكيف أنه جاء لينقل له صورة صحيحة عن رأى الناس، وبعد أن حدثه عن سابقته فى الإسلام . . ومعرفته بالإسلام وأصوله . . وقربه من رسول اللّه قال له:

- تعلم يا عثمان أن أفضل عباد اللّه إمام عادل هَدَى وهُدِى ، فأقام سنة معلومة، وأمات بدعة متروكة ، فواللّه إن كلا لبين، وأن السنة لقائمة لها أعلام، وأن البدع لقائمة لها أعلام، وأن شر الناس عند اللّه إمام جائر ضل وضل به . . فأمات سنة معلومه وأحيا بدعة متروكة . . وإنى سمعت رسول اللّه ﷺ يقول: « يؤتى يوم القيامة بالإمام الجائر وليس معه نصير ولا عاذر فيلقى فى جهنم كما تدور الرحى ، ثم يرتطم فى غمرة جهنم وإنى أحذرك اللّه . . وأحذرك سطوته ونقماته فإن عذابه شديد أليم، وأحذرك أن تكون إمام هذه الأمة المقتول . . فإنه يقال يقتل فى هذه الأمة إمام فيفتح عليها القتل والقتال إلى يوم القيامة . . ويلبس أمورها عليها . . ويتركهم شيعاً فلا يبصرون الحق لعلو الباطل . . يموجون فيها موجاً ويمرحون فيها مرحاً . .

ويرد عثمان على علىٍّ فى حوارهما التاريخى:

- قد واللّه علمت ليقولن الذى قلت . . أما واللّه لو كنت

مكانى ما عتقتك ولا أسلمتك ولا عبت عليك . . ولا جئت منكراً أن وصلت رحماً . . وسددت خلة . . وآويت ضائعاً . . ووليت شبيهاً بما كان عمر يولى . . أنشدك اللّه يا عليّ هل تعلم أن المغيرة ابن شعبة ليس هناك؟

قال : نعم.

قال: فتعلم أن عمر ولاه؟.

قال: نعم . .

قال: فلم تلومنى إن وليت ابن عامر فى رحمه وقرابته . .

قال عليّ:

سأخبرك أن عمر بن الخطاب كان كل من ولى فإنما يطأ على صماخه إن بلغه عنه حرف جلبه . . ثم بلغ به أقصى الغاية وأنت لا تفعل . . ضعفت ورفقت على أقربائك.

قال عثمان : هم أقرباؤك أيضاً.

قال عليّ : لعمرى إن رحمهم فى لغريبة . . ولكن الفضل فى غيرها.

قال عثمان : هل تعلم أن عمر ولى معاوية خلافته كلها ؟ فقد وليته . .

فقال عليّ: أنشدك اللّه هل تعلم أن معاوية كان أخوف من عمر من (يرفأ) غلام عمر منه.

قال : نعم.

قال عليٌّ: فإن معاوية يقطع الأمور دونك وأنت تعلمها . فيقول للناس هذا أمر عثمان فيبلغك ولا تغير على معاوية . .

وواضح من هذا الحوار أن عثمان كان يدافع عن سياسته . . فقد ولى من ولاه عمر بن الخطاب . . وهما المغيرة بن شعبة، ومعاوية ابن أبى سفيان . . فلماذا يلومونه ولم يلوموا عمر . . وكان من رأى عليٍّ أن عمر كان لا يتهاون مع أحد . . ولا يستطيع أحد أن يتقول عليه قولاً بعكسه . . وما كان من عثمان إلا أن خرج للناس . . وخطب خطبة بين أن الناس طمعوا فيه لتسامحه . . ولين جانبه . . ثم قال فى خطبته تلك بعد ذلك: أما واللَّه لأنا أعز نفراً وأقرب ناصراً وأكثر عدداً وأقمن إن قلت هلم أتى لك ولقد أعددت لكم أقرانكم وأفضلت عليكم فضولاً، وكشرت لكم عن نابى، وأخرجتم فىّ خلقاً لم أكن أحسبه، ومنطقاً لم أنطق به، فكفوا عليكم ألسنتكم وطعنكم وعيبكم على ولاتكم، فإنى قد كففت عنكم من لو كان هو الذى يكلمكم لرضيتم منه بدون منطقى هذا ، ألا فما تفقدون من حقكم . . واللَّه ما قصرت فى بلوغ ما كان يبلغ من قبلى . . ومن لم تكونوا تختلفون عليه فضل فضل من مال . . فمالى لا أصنع فى الفضل ما أريد فلم كنت إماماً . .

وما كان لمثل هذه الخطبة التى يصر فيها الخليفة على سياسته أن تحل مشكلة الثورة الكامنة فى النفوس . . فقد تفاقمت الأزمة . . وكأن معاوية قد شعر أن الخليفة فى خطر . . وأن النار تحت

الرماد.. فعرض على الخليفة بعد المؤتمر الذى عقده فى موسم الحج.. أن يذهب معه إلى الشام.. ولكنه قرر أن يظل بجوار رسول الله ﷺ.

قال معاوية : يا أمير المؤمنين انطلق معى إلى الشام قبل أن يهجم عليك من لا قبل لك به.. فإن أهل الشام على الأمر لم يزالوا..

قال عثمان : لا أبيع جوار رسول الله ﷺ بشئ وإن كان فيه قطع خيط عنقى..

قال معاوية : فأبعث إليك جنداً منهم يقيم بين ظهرانى أهل المدينة لنائبة أنتابت المدينة أو إياك..

- لا أضيق على جيران رسول الله ﷺ.

- والله لتغتالن أو لتغزين..

- حسبى الله ونعم الوكيل..

ويبدو أن أحداث عام ٣٤ هجرية.. كانت تنذر بالفاجعة فأهل الكوفة ثاروا مع بداية العام التالى على سعيد بن العاص ونجحوا فى إقصائه.. وكان ذلك مثالاً جعلت الأمصار الأخرى تريد أن تحتذيه وتغير من الولاة حسب رغباتهم.. وابتدأ تراسل الناقمين من أهل الكوفة وأهل البصرة وأهل مصر.. وكان الخليفة قد رفض تماماً نصيحة معاوية بأن يذهب للشام، فكيف يترك المكان الذى فيه قبر رسول الله ﷺ.. والذى شهد بداية معارك الرسول الكبرى.. ودفن فى ثراه الطاهر آخر رسل السماء، كما رفض أن يمده بجيش

من الشام فهو لا يريد أن يعيش كأباطرة الفرس والروم.. وهو الذى أعتاد أن يعيش وسط الناس .. يحدثهم ويحدثونه .. كما كان يفعل من قبله الشيخان أبو بكر وعمر .. كما أنه خشى من جند الشام على صحابة رسول الله ﷺ.

ومرت الأيام ..

وإذا الأمور تتأزم غاية التأزم .. فأهل الكوفة رفضوا سعيد بن العاص .. وطلبوا بدلاً منه أبا موسى الأشعرى .. ووافق عثمان على طلبهم .. وقد قال الرواة أن مالك بن الأشتر زعيم المتمردين فى الكوفة .. قد ضاق ذرعاً بسعيد بن العاص .. وأنه طلب من الخليفة عزله .. وكان من رأى سعيد أنه لو عزل .. فإن أهل الكوفة هم الذين سوف يكون بيدهم مقاليد الأمور .. وإن حل هذا الإشكال هو فى إرسال الناس إلى الغزوات .. وبذلك لا يكون عندهم من الفراغ ما يتحدثون فيه عن الفتنة والخوض فى الخلافة.. وأن مالك بن الأشتر قال لطلحة والزبير .. وهما من أهل الشورى أنه أنفق ما معه من أموال فى الرحلة .. ولو أن معه المال لسبق سعيد إلى الكوفة وحرض الناس عليه ومنعه من الدخول .. فأعطياه ما يريد من المال .. واستطاع بالفعل أن يمنعه من دخول الكوفة .. فأمر عثمان بأن يحل محله أبو موسى الأشعرى .. الذى كان والياً على الكوفة فى خلافة عمر .. وهكذا وجد الناس فى مختلف الأمصار أنه يمكنهم عزل من لا يرضونه حاكماً عليهم.

إن الصورة تغيرت . .

وأهل الأمصار فى مصر والكوفة لم ترضهم الأوضاع . . وليس هناك أكثر أمناً واستقراراً من الشام حيث يحكم قبضته عليها معاوية ابن أبى سفيان . . وأهل المدينة لا تعجبهم سياسة عثمان فى تولية أقاربه أمور السياسة . . وتأتى وفود من مصر والكوفة والبصرة . . وقد نسقوا الأمور فيما بينهم عن طريق المراسلات . . ويتوجهون إلى المدينة وهدفهم هو إصلاح الأمور ولو أدى الأمر إلى عزل الخليفة نفسه . . وأمام هذه الصورة الجديدة . . والثورة توشك على الإندلاع لا يجد عبدالله بن أبى سرح سوى الهروب من مصر والالتجاء إلى معاوية . . وزحفت هذه الجموع الثائرة صوب المدينة وقد اتخذ أهل كل إقليم جهة يعسكرون بها . . ورأى أهل مدينة رسول الله الشر فى وجوه هؤلاء الناس فقرروا مقاومتهم . . ولبسوا الدروع بالفعل . . وأمسكوا بسيوفهم . . ورفضوا أن يدخل هؤلاء العصاه إلى المدينة . . وشعر الثائرون بأن خطتهم سوف تبوء بالفشل . . وغيروا خطتهم بأن يرسلوا ثلاثة وفود إلى الثلاثة الكبار من أصحاب الشورى وهم علىٌّ وطلحة والزبير .

وقد كان لكل وفد من الوفود هوى فى واحد من الثلاثة الباقين من أهل الشورى . . كان الكوفيون يرشحون طلحة بن عبيد الله للخلافة . . والبصريون الزبير بن العوام . . وأهل مصر علىٌّ بن أبى طالب . . وقد نهرهم هؤلاء الصحابة عما يريدون أن يقوموا

به، ونصحوهم بالعودة وأظهروا موافقتهم . . وعاد كل وفد إلى الجبهة التى يعسكر بها . . حتى أن أهل المدينة رجعوا إلى منازلهم . . وإذا بهم يفاجئون بالتكبير يملأ جوانب المدينة . . وإذا بالثوار قد احتلوا المدينة . . وقالوا للناس : من كف يده فهو آمن . . وحاصروا بيت عثمان . . ولكن هذا الحصار لم يمنع عثمان أن يذهب إلى المسجد ويصلى بالناس . . ويصلى بالثائرين أيضاً . .

وقد ادعت جماعة المصريين أنهم ضبطوا رسالة من عثمان مع خادمه الذى كان يركب هجيناً متجهاً إلى مصر . . والرسالة مكتوبة إلى عبدالله بن أبى سرح لقتل محمد بن أبى بكر . . ويبدو أن الثوار لم يكونوا على علم بهرب ابن أبى سرح من مصر فعادوا إلى المدينة للاستفسار من الخليفة نفسه عن سر هذه الرسالة . . ولكن الغريب أن وفود البصرة والكوفة قد رجعوا إلى المدينة بحجة نصرة زملائهم من المصريين . . وكانت هذه مؤامرة بلا شك . . فما الذى أنبأ أهل الكوفة وأهل البصرة بأمر هذه الرسالة إلا إذا كان الأمر قد بيت بليل على حد تعبير على بن أبى طالب . .

وقص وفد مصر هذه الرواية الغريبة من أمر هذه الرسالة الغريبة . . وأخذ علىّ وافد من المصريين إلى الخليفة . . وحدثه بأمر الرسالة . . فأقسم عثمان أنه لم يرسل رسالة ولا أمر بإرسال رسالة فقال أحد المصريين :

– أنت بين اثنين إما إنك صادق أو كاذب . . فإن كنت كاذباً فقد

استحققت الخلع لما أمرت به من قتلنا بغير الحق . . وإن كنت صادقاً فقد استحققت أن تخلع نفسك لضعفك عن هذا الأمر وغفلتك وخبث بطانتك! .

ورفض عثمان أن يتنازل عن الخلافة بقوله:

- لا أنزع قميصاً ألبسنيه اللّه . . ولكنى أتوب وأنزع . .

ولكن المصريين قالوا له : ليست هذه هى أول مره تتوب وترجع مرة أخرى . . وإنهم لن ينصرفوا حتى يخلعوه عن الخلافة . . واستطاع الإمام علىٌ أن يخرج الثائرين . . ويعود حزيناً إلى منزله . . فقد تأزمت الأمور بصورة شائكة . . وتعقدت بشكل لا يعرف أحد كيف يحل . . فهؤلاء العصاه أغلظوا القول للخليفة فى سنه تلك التى تجاوزت الثمانين . . شيخاً وقوراً هادئاً . . لم يرتجف ولم يهتز رغم جسامة الأحداث . . فقد ألهمه اللّه الصبر . . إنه وحيد يجابه الثائرين . . ولا نصير له . . سوى قدرته على محاولة إقناع الثائرين بالعودة إلى الصواب . . وأنه سوف يصلح ما أفسده الولاه . . ولكن الثوار وقد وجدوا أنهم كادوا يحققون أهدافهم . . وأن المدينة أصبحت فى قبضتهم . . وأنه رغم قلة عددهم . . فقد رجح المؤرخون أنهم كانوا بين ١٥٠٠ ، ٣٠٠٠ ثائر . . إلا أنهم استطاع حصار بيت الخليفة وأصبحت الكلمة لهم . . والخليفة يجابه هذا التيار الجارف وحده . . وعلىٌ بن أبى طالب يحاول أن يطفئ نار هذه الفتنة . . والخليفة مع هول هذه الأحداث وخطورة

الموقف كان قد قرر نهائياً التصدى لهم بالإقناع .. لا الحرب .. ولكنه قرر ألا يتنازل مهما كانت الظروف .. ورفض عثمان أن يسلم كاتبه مروان إلى الثوار .. بينما هرب بنو أمية .. بعضهم ذهب إلى مكة.. وبعضهم هرب إلى الشام فى حماية معاوية بن أبى سفيان .. ولولا ما ظهر من عثمان من تردد نتيجة نصائح مروان بن الحكم لتغير وجه التاريخ .. ولخمدت الثورة .. وانتهى الأمر .. فقد خطب عثمان يعلن توبته في مسجد الرسول .. وما كاد يتم خطابه حتى امتلأت العيون بالدموع .. وهدأت الخواطر.. وقيل أن هذه التوبة كانت بسبب نصيحة من على .. قال لهم عثمان بعد أن حمد اللّه وأثنى عليه:

- أما بعد .. أيها الناس فواللّه ما عاب من عاب منكم شيئاً أجهله .. وما جئت شيئاً إلا وأنا أعرفه .. ولكن منعتنى نفسى وكذبتنى وضل عنى رشدى .. ولقد سمعت رسول اللّه ﷺ يقول: «من زل فليتب ولا يتماد فى الهلكة».. وإن من تمادى فى الجور كان أبعد من الطريق فأنا أول من اتعظ .. استغفر اللّه مما فعلت وأتوب إليه .. فمثلى نزع وتاب فإذا نزلت فليأتينى من أشرافكم فيرونى رأيهم .. لئن ردنى الحق لأستنن بسنة العبد.. ولأذلن ذلة العبد ولأكونن كالمرقوق (الرقيق) إن ملك صبر وإن عتق شكر .. وما عبد اللّه يذهب إلا إليه فلا يعجزن عليكم خياركم أن يدنوا إلى .. لئن أتت يمينى لتتابعنى شمالى.

يومها رقت القلوب .. وامتلأت العيون بالدموع .. وانتظر

الناس عهداً جديداً . . وسياسة جديدة للإمام . . ولكنه ما عاد يجلس إلى مروان بن الحكم . . حتى ألح عليه بأن التوبة معناها أنه أخطأ . . ومعناها أن الناس سوف يطمعون فيه . . وكان من رأى زوجة عثمان نائلة بنت الفرافصة ألا يستمع إلى مروان فهو مكروه من الناس . . وأن يسمع نصيحة علىٍّ، ولكن عثمان أغضب منه علياً لأنه رجع عن توبته . . وأنقاد لرأى مروان . . وقرر الإمام علىٌّ ألا يرجع مرة أخرى إلى منزل عثمان . . فقد نصحه ولم ينتصح . . وكان مما قاله علىٌّ:

- وأيم اللّه . . إنى لأراه سيوردك ثم يصدرك (يقصد مروان) . . وما أن بعائد بعد مقامى هذا لمعاتبتك . . أذهبت شرفك وغلبت على أمرك . .

ولم يكن الناس يريدون سوى وضع الأمور فى نصابها . . وعزل الولاة التى كثرت الشكوى منهم، بدليل أنهم وافقوا الإمام علىٌّ بن أبى طالب على ما يريد عثمان بشرط أن يبر بوعده . . وقد أخبر عثمان علياً أنه سوف يحقق مطالب الناس بعد ثلاثة أيام . . وانتظر الناس الأيام الثلاثة ولم يحدث شئ يذكر فى سياسة عثمان . . فلا عزل حاكماً . . ولا حقق أمل الناس فيما وعدهم به . . واشتد الحصار على عثمان . . وكان الناس قد وصلوا إلى طريق مسدود ولم يعودوا يسمعون خطب عثمان . . ولم يعتدوا بها . . لقد خطبهم . . وقال فيما قال للناس وهو محاصر:

- وأنشدكم باللّه أتعلمون لى من سابقة خير وقدم خير قدمه اللّه ى يحق على كل من جاء بعدى أن يعرفوا إلى فضلها . . فمهلا لا

تقتلونى فإنه لا يحل إلا قتل ثلاثة . . رجل زنى بعد إحصانه . . وكفر بعد إيمانه . . أو قتل نفساً بغير حق . . فإنكم إذا قتلتمونى وضعتم السيف على رقابكم ثم لم يرجع اللّه عنكم الاختلاف أبداً.

ولكنهم ردوا عليه رداً قاسياً . . فقالوا له فيما قالوا:

- أما قولك أنه لا يحل إلا قتل ثلاثة فإنا نجد فى كتاب اللّه قتل غير الثلاثة الذى سميت . . قتل من سعى فى الأرض فساداً . . وقتل من بغى ثم قاتل على بغيه . . وقتل من حال دون شئ من الحق ومنعه وقاتل دونه . . وقد بغيت ومنعت وحلت دونه وكابرت عليه . . ولم تقد من نفسك من ظلمت . . وقد تمسكت بالإمارة علينا . . فإن زعمت إنك لم تكابرنا عليها . . فإن الذين قاموا دونك ومنعوك منا . . إنما يقاتلون لتمسكك بالإمارة . . فلو خلعت نفسك لانصرفوا عن القتال معك .

ويبدوا أن عثمان كان مقتنعاً تماماً بتصرفاته . . وباختيار الذين اختارهم . . وكان متمسكاً أكثر بالخلافة لأنها ثوب ألبسه اللّه له . . فلا ينزعه أحد منه على حد قوله . . ومن هنا فقد زاد عليه الحصار . . ومنعوا عنه الماء . . واستطاع علىٌّ أن يرسل إليه بعض الماء سراً . . وعندما حاولت أم المؤمنين أم حبيبة إرسال الماء له . . ضربوا وجه بغلتها . . ومنعوها من دخول الدار.

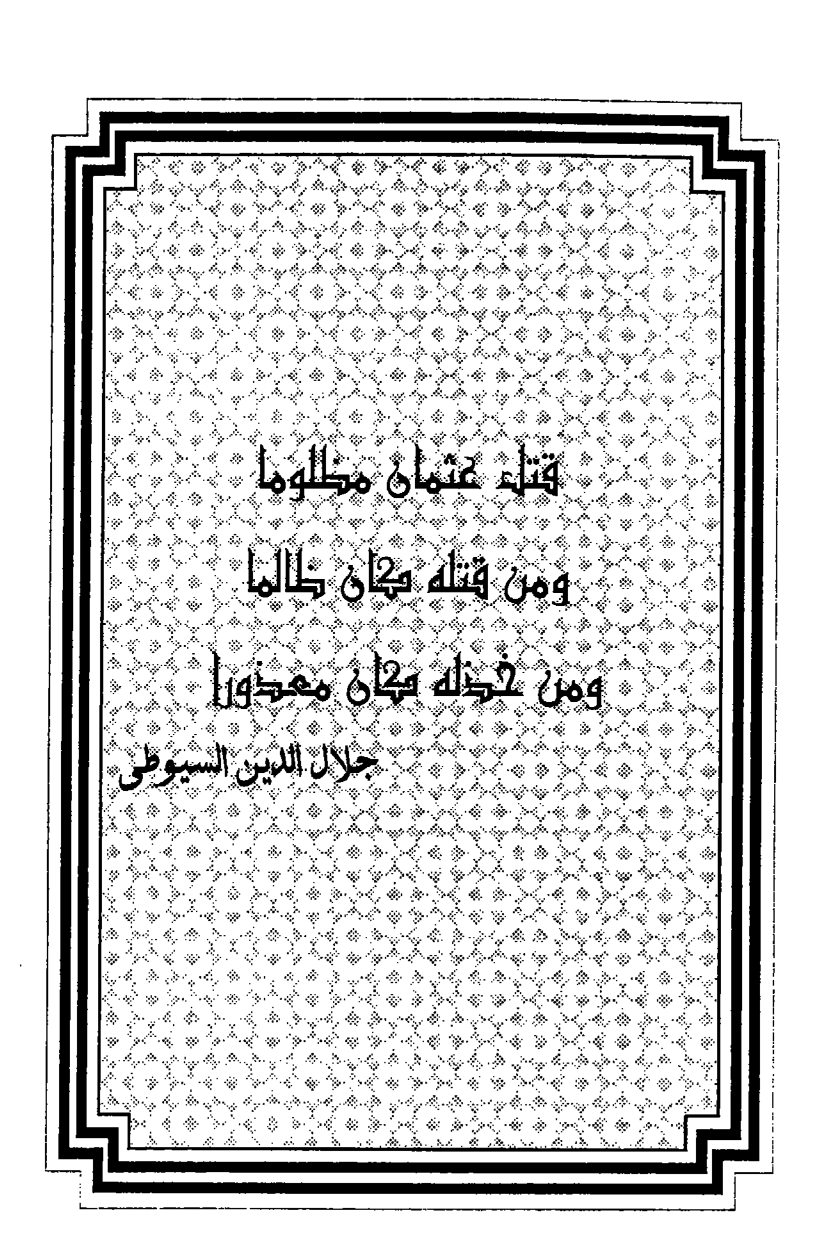
وخرجت عائشة للحج . . وتركت الفتنة تنشر ظلالها الكثيفة على المدينة.

ووسط هذه الظروف البالغة القسوة والقتامة أمر عثمان رضى اللّه عنه ابن عباس أن يحج بالناس .. وأعطاه خطاباً يلقيه على الناس يشرح فيه الظروف ويستنصر بهم .. وقد ألقى بالفعل ابن العباس خطاب عثمان على الناس وكان ذلك قبل يوم التروية .. وفى نهاية هذه الرسالة قال لهم عثمان:

- أما بعد .. فإنى لا أبرئ نفسى إن النفس لأمارة بالسوء إلا من رحم ربى إن ربى غفور رحيم .. وإن عاقبت أقواماً فما أبتغى بذلك إلا الخير .. وأنى أتوب إلى اللّه عز وجل من كل عمل عملته .. واستغفره إنه لا يغفر الذنوب إلا هو .. إن رحمة ربى وسعت كل شئ .. إنه لا يقنط من رحمة اللّه إلا القوم الضالون وإنه يقبل التوبة عن عباده ويعفو عن السيئات ويعلم ما يفعلون.. وأنا أسأل اللّه عز وجل أن يغفر لى ولكم ويؤلف قلوب هذه الأمة على الخير .. ويكره إليها الفسق .. والسلام عليكم ورحمة اللّه وبركاته .. أيها المؤمنون والمسلمون..

وهذا الخطاب الذى ألقاه ابن عباس فى موسم الحج .. يوضح للناس فيه أن الناس أعطوه البيعة باختيارهم .. وأنه عمل كل ما فى استطاعته ولكنه لن يعتزل الخلافة .. ولكن الخطاب لم يحرك أحداً. وعندما عاد ابن عباس كان عثمان قد استشهد ..

***


قتل عثمان مظلوما
ومن قتله كان ظالما
ومن خذله كان معذورا
جلال الدين السيوطي



استشهاد عثمان

كان واضحاً مما جرى من أحداث أن الأمور تسير فى طريق ملئ بالأشواك والتوتر . . وأن أحداثا جساماً سوف تحدث.

فالثوار قد أحكموا حصارهم على دار عثمان . .

وأهل المدينة أصبحوا مغلوبين على أمرهم . .

البعض منهم لا يعجبه ما يرى ولكن لا يستطيع إلى ذلك دفعاً . .

والبعض الآخر يبدو عليه الرضا بما حدث . . والخليفة نفسه مصمم على عدم ترك الحكم . . ومصمم فى نفس الوقت ألا يغير من سياسته . . وقد خرج طلحة والزبير من المدينة . . وخرج عمرو ابن العاص إلى فلسطين . . وخرجت أم المؤمنين عائشة إلى الحج هرباً من الموقف الصعب الذى آلت إليه حالة البلاد . .

وكان عثمان فى هذه الأيام الصعبة غاية الصعوبة فى غاية الشجاعة وضبط النفس . .

فهو هادئ أشد ما يكون الهدوء .

مطمئن النفس غاية الاطمئنان . . رغم قسوة الظروف . . ورغم الحصار الرهيب . . ورغم وحدته وهو يجابه هذا الحصار الشديد . . فطالما كان يطل على الثوار يخطبهم لعلهم يلينون . . ولكنهم لم

يلينوا .. لقد أرسل يطلب المدد من الشام .. ومن الأمصار الأخرى .. وطلب من الثوار إمهاله ثلاثة أيام .. وأخبر ذلك لعلىّ ابن أبى طالب ليخبره للناس .. وربما كان الخليفة يتمنى أن يصل المددة ليفك الحصار .. ويعيد الأمن والأمان إلى ربوع المدينة ويعيد إحكام قبضته على الناس .. ولكن الشئ المؤكد الأكيد أنه فى هذه الظروف البالغة القسوة لم يكن خائفاً .. ولم ترتعد فرائصه وقد أصبح سجين داره .. وكانت خطبته للناس تمتاز بالقوة .. والثقة بالنفس .. والاعتماد على اللّه .. فهو يرى أنه كان على حق .. وأنه سوف يموت شهيد هذا الحق..

ترى ما الذى ملأ قلبه بكل هذه الثقة والطمأنينة .. رغم أن الموت كان منه قاب قوسين أو أدنى ؟ ورغم أن الأمل فى النجاة كان أملاً شاحباً؟!.

ترى هل هو إيمان عميق بعداله موقفه وإقتناعه بذلك ؟ أنه تذكر ذلك الحديث الذى قاله الرسول الكريم عليه الصلاة والسلام.. يوم وقف على جبل أحد ذات يوم ومعه عثمان وأبو بكر وعمر وارتج الجبل فقال له الرسول : «أثبت أحد فما عليك إلا نبى وصديق وشهيدان».

ترى هل تراه يذكر ذلك الموقف وهو مع الرسول .. وقد تحققت نبوءة الرسول فمات عمر شهيداً .. ولم يبق إلا هو .. وقال عنه الرسول أنه شهيد .. وبالتالى فقد عرف أن قضاء اللّه وقدره كان

قدراً مقدوراً فقرر مواجهة الموت تلك المواجهة الشجاعة الرائعة التى قابله بها؟ .

أم أنه تذكر حديث الرسول ﷺ . . عندما قابله عند البئر خارج المدينة وحدثه أنه سيموت شهيداً . .

ربما يكون الخليفة الشهيد تذكر كل هذا فى ساعات الحصار فإذا بقبله يمتلئ بالإيمان بقضاء اللّه . . وإذا بطاقته على الاحتمال تفوق مناسيب طاقة الإنسان على الاحتمال . .

لقد كان تصرف هؤلاء الثوار تصرفاً بعيداً كل البعد عن أى تصرف إنسانى . . فكيف يمنع الماء عن أمير المؤمنين الذى طالما دفع من ماله الخاص ما يروى ظمأ المسلمين بالمجان . . والذى جهز جيشاً كاملاً للجهاد فى سبيل اللّه . . والذى طالما ساهم بأموال طائلة عندما كان يلم بالناس مجاعة أو مكروه . . وهو الدائم العطاء عندما يلم بالناس شدة من الشدائد . . ما لهم اليوم يمنعون عنه الماء والطعام . . ويضيقون عليه الخناق . . ويمنعونه حتى من الصلاة فى مسجد الرسول . . وهو الذى وسع هذا المسجد من ماله الخاص . . حتى أن هذا الحال وصفه الإمام علىٌّ بن أبى طالب . . وهو يؤنب الناس فى حديثه إليهم . . أحسن وصف وهو يقول لهم:

- يا أيها الناس إن الذى تفعلون لا يشبه أمر المؤمنين ولا أمر الكافرين فلا تمنعوا عن هذا الرجل الماء ولا المادة فإن الروم وفارس لتأسر وتطعم وتسقى . .

لقد مرت الأيام عصيبة بطيئة الخطى . . والإمام يجد فى الصلاة وقراءة القرآن سلوى . . تملأ قلبه سكينة . . ويشع من وجهه طهارة التقوى . . ويعلوه وقار السنين.

ما الذى أعمى هذه العيون لترتكب كل هذه الحماقات فى رجل كان يستحى منه رسول اللّه . .

وكيف صمت آذانهم عن رجل يملأ قلبه كتاب اللّه ويردد آياته ليل نهار؟

وكيف طاوعت قلوب هؤلاء الناس . . مهما امتلأت بالحقد والضغينة أن تقتل الإمام الذى ما زنى فى جاهلية ولا إسلام . . ولا طاوعه قلبه يوماً على القسوة على أحد . . فقد كان يريد الناس جميعاً أن ينعموا بالحياة ! . .

لماذا وقف هؤلاء الناس كالحجارة الصماء البكماء العمياء لا يريدون أن يسمعوا منهم رجلاً حكيماً هو عبداللّه بن سلام . . وكان يهودياً وأسلم وحسن إسلامه . . وكان اسمه حصين . . فسماه النبى عليه الصلاة والسلام عبداللّه . . ونزل فيه قرآناً . .

﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِ فَآمَنَ وَاسْتَكْبَرْتُمْ﴾[الأحقاف:١٠]

ما لهم لا يسمعون كلماته الناصحة لهم أن يبعدوا عن طريق أمير المؤمنين . . ولا يقتلوه . . لأن العاقبة ستكون وخيمة . . لماذا لا يسمعون منه كلماته الحكيمة :

- يا قوم لا تسلوا سيف اللّه عليكم . . فواللّه أن سللتموه لا تغمدوه ، ويلكم إن سلطانكم اليوم يقدم بالدرة فإن قتلتموه لا يقوم إلا بالسيف. . ويلكم أن مدينتكم محفوفة بملائكة اللّه . . ولئن قتلتموه لتتركنها . .

وهناك روايات كثيرة عن قتل عثمان . .

تختلف كل رواية عن الأخرى . . فقيل أن محمد بن أبى بكر تسور السور ودخل على عثمان ومعه رجلان . . وكان عثمان يقرأ فى القرآن . . فأخذ محمد بلحية عثمان . . فقال له عثمان: دع عنك لحيتى . . فما كان أبوك ليقبض على ما قبضت عليه . . فاستحيا محمد بن أبى بكر وخرج . .

ودخل الغوغاء الدار . . واختلط الأمر . . ودخل الثائرون فقتلوا الإمام الشهيد وهو يقرأ القرآن الكريم.

وقيل أنه عندما ضربوا عثمان قال:« بسم اللّه توكلت على الله». . وسالت دماؤه على المصحف واتكأ على شقة الأيسر وهو يقول: « سبحان اللّه العظيم » . . وقالوا أن الدم سال على المصحف وتوقف عند الآية الكريمة . . « فسيكفيكهم اللّه وهو السميع العليم » ثم ضربوه ضربة واحدة . . فخرجت روحه إلى بارئها . .

وكان على باب عثمان يدافع عنه الحسن والحسين . . وعبداللّه ابن الزبير وبعض الصحابة . . ولكن الأمر كان أكبر منهم . . وعلم

الإمام علىٌّ بما حدث فتوجه إلى دار عثمان ولطم الحسن والحسين . .

قتل عثمان مظلوماً . . ولم يستحى قاتلوه . . فقتلوه وهو يتلو كتاب اللّه . . وكان قد طلب من أصحابه عدم القتال دونه . . فهو لا يريد أن يريق دماء المسلمين . . ولم يتورع هؤلاء وهو يهمون بتنفيذ جريمتهم تلك من الوقوف وهم يرون زوجته نائلة تحاول حمايته بكل طاقتها حتى أن السيوف أطارت أصابعها . . بل لقد حاول بعض المتمردون قطع رأس الإمام الشهيد . .

لقد ملأت السكينة قلب هذا الرجل الذى تجاوز الثمانين من عمره فى أيامه تلك الأخيرة . . كأروع ما يكون الامتثال لأمر اللّه . . وما أراد أن يحيد عن أمر اعتقد أنه الصواب . . حتى قال لأحد الذين دخلوا عليه أثناء الحصار وهو يطلب منه التنحى عن الخلافة ليطلقوا سراحه قال له عثمان :

- ويحك واللّه ما كشفت امرأة فى جاهلية ولا إسلام . . ولا تغنيت ولا تمنيت . . ولا وضعت يمينى على عورتى منذ بايعت رسول اللّه ﷺ ولست خالعاً قميصاً كسانيه اللّه حتى يكرم اللّه أهل السعادة . . ويهين أهل الشقاوة . .

ولقد زاره عبداللّه بن سلام أثناء الحصار . . فقال له عثمان:

- مرحباً يا أخى . . مرحباً بأخى أفلا أحدثك ما رأيت الليلة فى المنام ؟ .

قال : بلى .

قال عثمان: رأيت رسول اللّه ﷺ فى هذه الخوخة وإذا خوخة فى البيت (مكان يأتى منه الضوء) فقال: أحاصروك .. فقلت: نعم.. فأدلى لى دلواً من ماء فشربت حتى رويت .. فإنى لأجد برده بين كتفى وبين بدنى .. ثم قال لى: إن شئت نصرت عليهم وإن شئت أفطرت عندما .. فاخترت أن أفطر عندهم..

وقد قتل عثمان فى هذه الليلة..

قتل عثمان رضى اللّه عنه..

وظل فى بيته ثلاثة أيام .. ثم قرر بعض الصحابة دفنه .. رغم الخوف من الثوار .. وتمكنوا من ذلك بصعوبة .. فقد حاول البعض ضرب مركب الجنازة بالحجارة .. ولكن أمام إصرار هؤلاء النفر القليل الذين جازفوا بهذه المهمة .. وخوفاً من تأزم الأمور.. فقد سكتوا على مضض .. وصلى عليه جبير بن مطعم وخلفه حكيم بن حزام وأبى جهم بن حذيفة وغيرهم .. وكانت الجنازة فى الوقت ما بين المغرب والعشاء .. ودفن فى مكان بالقرب من البقيع اسمه (حش كوكب) .. مات عن ٨٢ عاماً .. وقال البعض أن علياً وطلحة والزبير ساروا فى الجنازة.

وهكذا قتل عثمان ظلماً .. وكان ذلك لثمان عشر خلت من ذى الحجة سنة خمس وثلاثين .. وترك موته فى القلوب أسى وأحزاناً.. وفتح مقتله باباً للخلاف بين المسلمين .. ترك بصماته عبر عشرات الأجيال ولا يزال ..وكانت الوصية التى وجدت فى خزانته رضى اللّه عنه ورقة مكتوب فيها:

« هذه وصية عثمان . . بسم اللّٰه الرحمن الرحيم . . عثمان بن عفان . . يشهد أن لا إله إلا اللّٰه وأن محمداً عبده ورسوله . . وأن الجنة حق . . وأن النار حق . . وأن اللّٰه يبعث من فى القبور ليوم لا ريب فيه . . إن اللّٰه لا يخلف الميعاد . . عليها يحيا وعليها يموت وعليها يبعث أن شاء اللّٰه » . .

لقد قتل عثمان فى الشهر الحرام . . وفى البلد الحرام . . بعد حصار دام أربعين يوماً . . ولم يكن قتله نهاية لبعض شكوى المسلمين من ضعفه أمام أقاربه الذى ولاهم حكاماً من بنى معيط وبنى أمية . . بل كان بداية أزمة من أخطر الأزمات التى مرت بالتاريخ الإسلامى . . فقد كشرت الفتنة عن أنيابها . . وانقسمت الأمة الإسلامية فى صراع دام رهيب . . بين الأمويين المطالبين بدم عثمان . . وبين الهاشميين مطالبين علياً الذى تولى الخلافة بعد عثمان بدمه . . وما نتج عن ذلك من صراع رهيب . . على الخلافة التى ما لبثت أن تحولت إلى ملك عضود على يد الأمويين . . وكانت فترة الصراع بين علىٍّ ومعاوية من السنوات العجاف القاسية فى التاريخ الإسلامى . . فقد شغل الناس عن الجهاد فى سبيل اللّٰه . . إلى التشيع لعلىٍّ أو ضد علىٍّ . . ثم بدأت حملات الافتراءات والتشكيك . . حتى وجدنا أن خلفاء بنى أمية يأمرون بلعن علىٍّ من فوق المنابر . . ثم ازداد الصراع حدة بين معاوية وبنيه وعلىٍّ وبنيه . . وأخذ تيار التاريخ مجرى آخر . .

صراعات كثيرة .. مرهقة ودامية .. وخلافات لم تجد لها الحلول حتى يومنا هذا .. نتجت أعقاب مقتل عثمان رضى اللّه عنه .. عندما أرسلت نائلة قميص عثمان المخضب بالدم وأصابعها التى قطعت ليعلقها معاوية فى جامع دمشق .. يستثير الناس طلباً لدم الخليفة الشهيد .. كما أرسلت نائلة خطاباً لمعاوية تحدثه فيه عن كيفية قتل الإمام .. ولا أحد يعرف لماذا لم يرسل معاوية فى ساعات الأزمة جيشاً لنصرة عثمان .. وعندما تم الأمر ابتدأ يطالب بدم عثمان؟! ..

لا شك أن علياً رضى اللّه عنه كان بريئاً من دم عثمان .. ولم يقصر فى أمر من الأمور .. وأن الأمر قد خرج من يده .. ولكن معاوية كانت له طموحات عريضة .. كان يريد الملك .. وكانت الظروف تساعده على ذلك .. فهو يملك القوة والمال والذريعة لعدم مبايعته علياً .. وما أدى إليه كل هذا من تغيير مسار الأحداث.

هذه صورة عن حياة عثمان رضى اللّه عنه .. وعن أيامه وعن خلافته .. إنسان عاش حياة الثراء فى الجاهلية والإسلام .. هادئ الطبع .. دمث الأخلاق .. صبوراً .. يمتلئ بالحياة وبالحياء .. تزوج ابنتى رسول اللّه رقية وأم كلثوم .. وقد أنجب من رقية عبداللّه الذى توفى وعمره ست سنوات ..

وقد تزوج عثمان ٩ نساء .. وانجب ستة عشر .. منهم تسعة ذكور وسبع نساء .. ولم ينجب من السيدة أم كلثوم بنت رسول

الله ﷺ . . وعندما استشهد كان فى عصمته من النساء نائلة ورملة وأم البنين وفاختة . . وقد طلقت أم البنين أثناء الحصار . .

وقد كانت السنوات الست الأولى من خلافته التى امتدت قرابة اثني عشر عاماً . . من أروع أيام التاريخ الإسلامى . . حيث شعر الناس بالأمن والأمان والتطلع إلى أيام أكثر إشراقاً . . فهو لم يكن فى شدة عمر . . ولم يأخذ الناس إلا باللين . . وكانت الأموال تتدفق مع الانتصارات الساحقة . . التى حققها المسلمون فى عصره وعصر سلفه العظيم عمر . . واتسعت الفتوحات فى عهده اتساعاً هائلاً . . حتى وصلوا إلى بحر قزوين . . وحدود الصين . . ودخلوا الهند . . وانتصروا فى أفريقيا . . وحطموا كبرياء البحرية الرومانية فى معركة ذات الصوارى ودخلوا جزيرة قبرص ورودس . . حاولوا حصار القسطنطينية نفسها . . أمجاد تتدفق مع الأيام . . ومساحات الأرض التى تدخل فى دائرة الإسلام تزداد كل يوم . . لولا أن ظروف الحياة بدأت تتغير . . وبدأ الناس أيضاً يتغيرون . . فالدنيا مقبلة . . والحضار الإسلامية تختلط مع الحضارات الأخرى التى انطوت تحت راية الإسلام . . كالحضارة الفارسية . . والشعوب العربية التى كانت تحت حكم الرومان فى الشام . . كما احتكت الحضارة الإسلامية أيضاً بالحضارة الفرعونية المصرية . . وتزوج بعض النازحين من القبائل العربية من هذه الشعوب . .

وبدأت الحياة تأخذ شكلاً جديداً . . فيه التطلع إلى حياة المجد والترف والرفاهية وبدأت من تحت الرماد تهب من جديد نيران كانت خابية من الصراع القبلى القديم بين بنى هاشم وبنى أمية من جهة . . وبين بعض القبائل العربية الأخرى التى كانت ترى أن قريشاً تفضل نفسها عنهم . . مع أنهم اشتركوا فى الفتوحات الإسلامية . . وأدوا واجب الجهاد وبسواعدهم امتد الإسلام إلى بقاع كثيرة من العالم . . فلم تؤثر قريش نفسها عن سائر القبائل العربية ؟! .

وبدأت الحياة تأخذ شكلها الجديد .

هناك المتطلعون إلى الرياسة وإلى تولى الأمور . . ولكنهم وجدوا أن الباب مغلق أمام تطلعاتهم . . فالخليفة يؤثر أقاربه بتولى أمور الأمصار فأخذ الناس يتلفتون حولهم يبحثون عن تاريخ هؤلاء الناس . . وموقفهم من رسول الله ﷺ . . فإذا بهم ينقبون عن تاريخهم القديم . . وما فيه من مآخذ على البعض . . كعبد اللّه بن أبى سرح الذى تولى الأمور فى مصر . . بعد عمرو بن العاص . . والوليد بن عقبة الذى تولى الكوفة بدل سعد بن أبى وقاص . . ثم تولية سعيد بن العاص . . بجانب تلك الرياح التى هبت بفعل دسائس عبداللّه بن سبأ اليهودى الذى ادعى الإسلام ليكيد له . . وإن كان خطر ابن سبأ سوف يظهر أكثر فى خلافة علىٍّ بن أبى طالب لأنه أخذ يعلن فى مختلف الأمصار أن لكل نبى وَحياً . . وعلىٌّ هو وحى النبى . . وبالتالى هو أولى بالخلافة من عثمان . .

كما كان يشكك الناس بقوله : عجبت لمن يقول عن رجعة عيسى . . ولا يقولون عن رجعة محمد . .

و . . تغيرت معالم الصورة . . أمام تطلعات البعض . . وثورة البعض . . وعصبية البعض الآخر . . فإذا بكل الروافد تتجمع على شكل فتنة . . وإذا بالثوار يتجمعون من الكوفة والبصرة ومصر يريدون تغيير سياسة الخليفة ولو اقتضى الأمر قتله . . والخليفة يرى أن تصرفاته سليمة . . فلم يقترف إثماً . . ولم يزن فى جاهلية ولا إسلام . . وقدم عطاء كبيراً فى الإسلام . . فما بالهم يتألبون عليه . . ألا إنه ولى أقاربه . . كانت صيحة عثمان أن لا جناح عليه فى تولية أقاربه . . فليس هناك نص فى القرآن أو السنة يمنع تولية الأقارب . . وأن بعض عمال كمعاوية قد ولى فى عهد الصديق . . وظل طوال خلافة عمر . . فما لهم ينكرون عليه ما ينكروه على الشيخين . . واحتجوا عليه أن معاوية وأمثاله كانوا لا يستطيعون مخالفة أمر عمر . . بل كانوا أطوع لعمر من خادم عمر . . والأمر يختلف بالنسبة للولاة مع عثمان . . . فقد كانوا يدعون أن عثمان أمرهم بأشياء وهو لم يأمرهم بها ! .

ثم أخذوا على عثمان رضى اللّه عنه إسرافه فى المال العام . . وعدم تفريقه بين المال الخاص وأموال الدولة . . وأنه مثلاً أعطى لعبد الله بن أبى سرح خمس أفريقية . . أو خمس غنائم أفريقية . . وكان المفروض أن توزع على المسلمين . .

وما أكثر ما قيل عن إسراف عثمان .. وإن كان كثيراً من هذه الاتهامات على عثمان لم تثبت وقائعها .. ولكن الناس اتخذوا من ضعفه أمام أقاربه وسيلة للنيل منه.

ولو أن عثمان اختار من كبار الصحابة أمثال عليٍّ وطلحة حكاماً على الولايات الكبيرة ما حدث الذى حدث .. وما وجد المغرضون وسيلة للنيل من عثمان.

وهناك اشياء أخرى أخذوها على عثمان .. ووضعوها تحت المجهر . وضخموها .. وقالوا فيما قالوا أنه أخذ من بيت مال المسلمين ليبنى له دوراً .. وهذا افتراء لم يثبته التاريخ .. كما أنه كان واسع الثراء .. وكان حياؤه وتعففه وتدينه تمنعه من كل ما قيل عليه ظلماً وافتراء.

وعابوا فيما عابوا أنه أتم الصلاة فى منى وعرفة .. بينما صلى النبى والشيخان على القصر .. وكان رأى عثمان أن له مالاً فى الطائف وله أهل فى مكة .. ولم يقنع هذا الناس .. وكأنه ليس من حقه الاجتهاد .. وليس من حقه أن ينفل الناس .. وقصر الصلاة فى السفر رخصة .. وإتمامها عزيمة .. وقد أخذ عثمان بالعزيمة.

أشياء كثيرة تسببت فى الفتنة .. ولكن لم تكن هذه الأسباب من القوة بحيث تعطى للثائرين الحق فى قتل الخليفة.. فخلافته صحيحية ولم يفعل ما يوجب القتل .. كما أن بعض ما رأوه من

تجاوزات تعتبر هفوات ضئيلة . . إذا ما قورن بما فعله خلفاء بنى أمية ومن بعدهم خلفاء بنى العباس . . وكان من الصعب عليه أن يكون صورة من أبى بكر أو عمر . .

وكان من الصعب . . على أى إنسان فى أى عصر أن يكون فى صورة هذين الشيخين . ! .

وكان عثمان رضى اللّه عنه يقول : يرحم اللّه عمر . . ومن يطيق ما كان عمر يطيق . .

و . . قتل عثمان مظلوماً . . وصدق فيه قول الرسول الكريم:

« يا عثمان أنك ستبلى بعدى فلا تقاتلن ».

وعمل الرجل بوصية الرسول الكريم . . فلم يقاتل الذين حاصروه ولا أمر بقتالهم . . بل طلب من أولاد الصحابة العودة إلى منازلهم . . إلى أن تحقق أمر اللّه . . وتمت مشيئته . .

ودفن الرجل الذى شابت لحيته فى الإسلام فى ليلة شاحبة بعد صلاة المغرب . . يشيعه عدد قليل من الرجال . . ودفنوه فى (حش كوكب) . . على رأس إحدى عشر سنة . . وأحد عشر شهراً واثنين وعشرين يوماً من مقتل عمر بن الخطاب . . وعلى رأس خمس وعشرين من متوفى رسول اللّه ﷺ على حد تعبير ابن إسحق . .

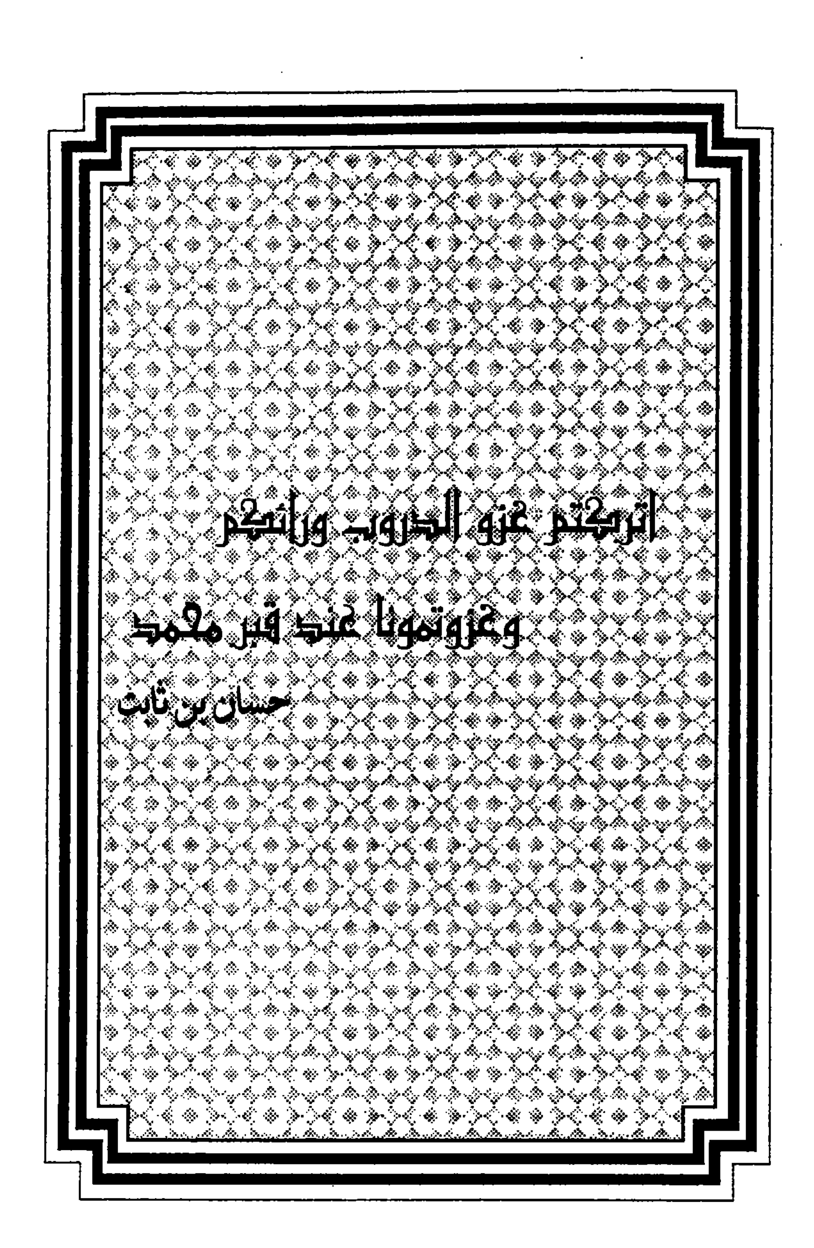
رحل عثمان إلى أكرم جوار . . وكأن الرسول العظيم يرثيه بأعز الكلمات وأحرها . . ويضعه فى موضعه السليم يوم قال له:

« غفر اللّه لك يا عثمان ما قدمت وما أخرت، وما أسررت وما أعلنت ، وما هو كائن إلى يوم القيامة ».

لقد استشهد عثمان رضى اللّه عنه .. و .. دخل التاريخ الإسلامى مرحلة جديدة .. فيها الصراع الدامى الرهيب بين علىٍّ ومعاوية من جهة .. وعلىٍّ وطلحة والزبير وعائشة من جهة أخرى.. وعلىٍّ والخوارج من جهة ثالثة .. ليأخذ التاريخ الإسلامى مجرى جديداً .. وصوراً جديدة ومناقشات كثيرة .. لم تنته حتى اليوم..

* * *




اتركتم غزو الدروب ورائكم
وغزوتمونا عند قبر محمد
حسان بن ثابت



ونبقى كلمة

من خلال ما رأينا من أحداث منذ أن دخل عثمان رضى اللّه عنه الإسلام وكان من أوائل الذين آمنوا بدعوة الحق إلى أن استشهد بهذه الصورة التى يأباها الإسلام . . ويأباها أى مسلم يحرص على عقيدته . . وبنظرة موضوعية . . بعيدة عن الهوى والتعصب . . يلاحظ أى مدقق لمجرى الأحداث أن عثمان رضى اللّه عنه لم يكن ضعيفاً كما صوره البعض، فقد ظل متماسكاً بما اعتقد أنه الحق وأنه الصواب . . وما كان له أن يتنازل عن الخلافة . . لأن خلافته كانت سليمة . . بل أن مجابهته الموت بهذه الصورة الشجاعة . . وهو يقرأ كتاب اللّه ويناقش أهل الفتنة تدل على صبر عظيم يفوق أكثر أنواع الشجاعة جرأة وإقداماً . . فقد تقبل الموت بشجاعة منقطعة النظير . . وظل رغم وحدته يجابه شراذم الثائرين الذين جمعتهم أهواء وأغراض متفرقة . . ولم تلن له قناة . . صحيح أنه أعطاهم عهداً . . ثم تردد فى هذا العهد . . ورجع فيه تحت ضغط مروان ابن الحكم . .

وكان يأمل أن يأتى إليه مدد من الشام يدعم سلطانه . . ويؤدب الخارجين على السلطة الشرعية . . وانتشرت الإشاعات بأن هناك جيشاً سوف يأتى من الشام فأسرع الثائرون لقتله . . ولكن هذا يدل ليس على تردد عثمان رضى اللّه عنه . . ولكن يدل على أنه كان

مؤمناً فى أعماق نفسه بأن ما فعله من تصرفات فى الأمصار من حقه كحاكم مسلم أن يقوم بها وعليه تقع مسئولية تصرفاته . . وإن كان أعطى وعداً ورجع فيه . . فهو بلغة السياسة كان يريد هدنة من الوقت ليأتى جيش الشام . . ويعود الأمن إلى ربوع المدينة التى لم تعد تعرف الأمن والأمان . . ثم يظل على سياسته التى اعتقد أنها سليمة . . فمن حقه أن يعين ويعزل ما يراه صالحاً لذلك . . . وإذا كانت فى هذه السياسة بعض التجاوزات . . فإن هذه التجاوزات إذا ما قارنّاها بما يحدث بين الحاكم والمحكوم فى كل العصور لرأيناها أشياء تافهة لا تستحق أن تقوم من أجلها ثورة .

فالذين اعترضوا عليهم من الولاة . . وطعنوا فى سلوكهم الشخصى . . لم يكونوا شخصيات تافهة . . فقد حققوا انتصارات عظيمة فى الشمال الأفريقى عند مجابهتهم للرومان . . وهزموا الرومان براً وبحراً كما فعل عبداللّه بن أبى سرح . .

وانتصروا أيضاً وحققوا انتصارات كبيرة على الفرس وواصلوا الزحف وسط طبيعة بالغة القسوة والضراوة . . وعلى أرض لم يتعودوا الحرب عليها . . حيث الثلوج والبرودة القاسية حتى وصلوا إلى بحر قزوين . . وبسطوا نفوذ الإسلام داخل الهند . . على يد رجال من أمثال ابن عامر الذين عابوا عليه صغر سنه . . رغم أن النبى عليه الصلاة والسلام ولى أسامة بن زيد وكان أصغر سناً من ابن عامر ليقود جيش الإسلام لمحاربة الرومان والانتقام لشهداء

مؤته.. وكان هذا الجيش الذى يقوده أسامة فيه أعلام الصحابة من أمثال عمر وأبى بكر الصديق فما بالهم يعترضون على عثمان تولية ابن عامر لصغر سنه .. مع أنه حقق هذه الانتصارات.. رغم أن النبى وهو القدوة فعل ذلك مع أسامة .. ألأنه من أمية!!.

إن هذه الثغرة العصبية جرّت بعد ذلك من المشاكل الضخمة ما لوى عنق التاريخ الإسلامى .. وجعله يتعثر بعد سلسلة من المجازر البشرية التى حدثت فيما بعد بين المسلمين والمسلمين !.

لقد اتخذ بنو أمية من مقتل عثمان رضى اللّه عنه وسيلة لتحقيق حلمهم القديم فى السيادة والرياضة وركوب رقاب العباد.. ولم ينس التاريخ موقف أبى سفيان .. عندما شاهد جيش الرسول عليه الصلاة والسلام وهو يوشك أن يدخل مكة .. رأى جيشاً ضخماً .. مطيعاً للرسول .. ينفذ كل إشارة من إشاراته .. يومها همس أبو سفيان فى أذن العباس عم الرسول الكريم:

- لقد أصبح ملك ابن أخيك عظيماً.

لم ير أبو سفيان فى انتصارات الإسلام .. وما حققه من أمجاد سوى أنه الملك .. ورد عليه العباس بقوله:

-ليس ملكاً .. إنها النبوة..

ولكن هذا الاعتقاد كان مترسباً فى أذهان بنى أمية .. وفى أعماقهم وأرادوا أن يستعيدوا مجد بنى أمية فى الجاهلية .. واتخذوا من قميص عثمان المخضب بالدماء .. وسيلة لتحقيق

هدافهم . . فإذا بهم يطالبون علياً عندما تولى الخلافة بدم عثمان . . ثم يقوم هذا الصراع الرهيب بين عليٍّ ومعاوية . . ويستشهد الإمام على . . ويخلو الجو لمعاوية . . فلم يكن الحسن راغباً فى الصراع.

ثم يعاد الصراع بصورة دامية رهيبة عندما يقاوم الحسين رضى اللّه عنه ظلم بنى أمية عندما حوّلوا الخلافة إلى ملك عضوض . . بعد أن أخذ معاوية البيعة لابنه يزيد بالقوة والإكراه . . ثم حدث الصدام بين الحسين ويزيد والتى انتهت بمذبحة كربلاء . . التى ذهب ضحيتها الحسين وآل بيت رسول اللّه . .

والدم لا يروى إلا بالدم . .

فإذا بالأحداث تسير بعد ذلك سيراً عجيباً . .

وتمضى الأيام . .

وهناك من ينادى بالثأر لدم الحسين . .

وتظهر الفرق المختلفة . . والمذاهب المختلفة . . التى تتجاول وتتحاور وتتآمر أيضاً . . وتتبلبل الأفكار . . نتيجة التعصب الذى له جذوره البعيدة من أيام الجاهلية . .

حتى إذا ما سقطت الدولة الأموية . . وقامت الدولة العباسية التى تنتسب إلى العباس عم النبى عليه الصلاة والسلام على يد السفاح.

ترى الانتقام رهيباً إلى صورة لا يمكن أن يتصورها الخيال . .

فالذين جاؤوا لم يصححوا مسار الأحداث .. ويعيدوا الأمر شورى بين الناس .. ولكن كانت نقطة البداية هى الانتقام من بنى أمية .. ومن الذين فعلوه أثناء مدة حكمهم .. ويقف التاريخ مذهولاً من هول ما يرى على يد أبى العباس الملقب بالسفاح عندما يتولى الحكم .. حيث انتقم من خصومه أشد الانتقام .. انتقم من بنى أمية .. ذبح زعماءهم .. بل أقدم على أعمال فى غاية البشاعة حيث أخرج جثث خلفاء بنى أمية من المقابر وأوقد فيها النار!!.

ولسنا هنا بصدد سرد أحداث التاريخ فيما تلا أيام عثمان رضى اللّه عنه من أحداث .. ولكن هى مجرد وقفة سريعة أمام الأحداث التى أعقبت هذه الفتنة التي غيرت مسار التاريخ الإسلامى .. وأصبحت الشعوب الإسلامية تحكم بالسيف بعد أن كانت تحكم بالدرة كما تنبأ بذلك ابن سلاّم.

ولعل الكتاب الذى أرسلته نائلة زوجة عثمان إلى معاوية ليعطى صورة لما حدث من مشاهد عيان .. مشاهد الأحداث عن قرب.

وهذا الكتاب أيضاً كأنه يوجز الأحداث كلها .. ثم يعطى للناس بعد ذلك الدروس المستفادة من هذه المحنة القاسية التى مرت بدولة الإسلام .. على يد بلغت بها الشجاعة مداها عندما أقام أول بحرية إسلامية فى الإسلام .. ناجزت الرومان ذات التاريخ الطويل فى هذا المجال وحقق النصر الأكيد عليهم .. ثم بسط نفوذ الإسلام

إلى بلاد لم يكن يخطر ببال أحد وصول الزحف الإسلامى إليها . .

فإذا بهذا الإنسان المتواضع البسيط الذى كان تستحى منه ملائكة السماء . . يقتل ظلماً لأسباب لا تؤهل لسفك الدماء . .

لنقف قليلاً عند نص الكتاب :

- من نائلة بنت الفرافصة . . إلى معاوية بن أبى سفيان . .

أما بعد :

فإنى أدعوكم إلى اللَّه الذى أنعم عليكم وعلمكم الإسلام وهداكم من الضلالة وأنقذكم من الكفر، ونصركم على عدوكم، وأسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة، وأنشدكم اللَّه وأذكركم حقه وحق خليفته أن تقروا بعزم اللَّه عليكم فإنه قال :

﴿ وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِن بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الأُخْرَىٰ فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّىٰ تَفِيءَ إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ ﴾ [الحجرات : ٩]

فإن أمير المؤمنين بغى عليه . . ولو لم يكن لعثمان عليكم إلا حق الولاية على كل مسلم يرجو إمامته أن ينصره . . فكيف وقد علمتم قدمه فى الإسلام وحسن بلائه . . وأنه أجاب اللَّه وصدق كتابه . . واتبع رسول اللَّه أعلم به إذ انتخبه فأعطاه شرف الدنيا وشرف الآخرة . . وإنى أقص عليكم خبره . . إنى شاهدة أمره كله : إن أهل المدينة حصروه فى داره . . وحرسوه ليلهم ونهارهم قياماً على أبوابه بالسلاح . . يمنعونه من كل شئ قدروا عليه حتى منعوه الماء . . فمكث هو ومن معه خمسين ليلة وأهل مصر قد

أسندوا أمرهم إلى محمد بن أبى بكر وعمار بن ياسر وطلحة والزبير فأمروا بقتله .. وكان معهم من القبائل خزاعة وسعد بن بكر وهزيل وطوائف من جهينة وقرينة وأنباط يثرب .. فهؤلاء كانوا أشد الناس عليه .. ثم إنه حصر فرشق بالنبل فجرح ممن كان فى الدار ثلاثة نفر .. فأتاه الناس يصرخون إليه ليأذن لهم فى القتال فنهاهم وأمرهم أن يردوا إليهم نبلهم فردوها عليهم .. فما زادهم ذلك فى القتل إلا جرأة .. وفى الأمر إلا إغراقاً .. فحرقوا باب الدار .. ثم جاء نفر من الصحابة فقالوا إن ناساً يريدون أن يأخذوا من الناس بالعدل فاخرج إلى المسجد يأتوك .. فانطلق فجلس فيه ساعة وأسلحة القوم مطله عليه من كل ناحية .. فقال: ما أرى اليوم أحداً يعدل .. فدخل الدار وكان معهم نفر ليس على عامتهم أسلحة .. فلبس درعه وقال لأصحابه لولا أنتم ما لبست اليوم درعى .. فوثب عليه القوم .. فكلمهم ابن الزبير وأخذ عليهم ميثاقاً فى صحيفة بعث بها إلى عثمان .. عليكم عهد اللّٰه وميثاقه أن لا تقربوه بسوء حتى تكلموا وتخرجوا .. فوضع السلاح ولم يكن إلا ودخل عليه القوم يقدمهم محمد بن أبى بكر .. فأخذ بلحيته ودعوا باللقب .. فقال أنا عبداللّٰه وخليفته عثمان فضربوه على رأسه ثلاث ضربات وطعنوه فى صدره ثلاث طعنات .. وضربوه على مقدم العين فوق الأنف ضربة أسرعت فى العظم .. فسقطت عليه وقد أثخنوه وبه حياة .. وهم يريدون أن يقطعوا رأسه فيذهبوا به .. فأتتنى ابنة شيبة بن ربيعة فألقت بنفسها معى ..

فوطئنا وطئاً شديداً . . وعرينا من حلينا وحرمة أمير المؤمنين أعظم . . فقتلوا أمير المؤمنين في بيته مقهوراً على فراشه . . وقد أرسلت إليكم بثوبه عليه دمه . . فإنه والله إن كان أثم من قتله فما سلم من خذله فانظروا أين أنتم من الله . . وأنا اشتكى كل ما مسنا إلى الله عز وجل وأستصرخ بصالحي عباده . . فرحم الله عثمان ولعن قتلته . . وصرعهم في الدنيا مصارع الخزى والمذلة . . وشفى منهم الصدور . .

وهكذا استشهد عثمان وهو في الثانية والثمانين من عمره .

وباستشهاده بدأت صراعات كثيرة على الحكم . . وظهرت من تحت رماد السنين عصبيات كان الإسلام قد قضى عليها .

ولعل من المفيد هنا أن نقول أن الاتهامات التي انهالت على (عليٍّ بن أبي طالب) كانت ظالمة . . فطالما نصحه بأن يعزل الولاة التي لم ترض عنهم الأنصار لقرابتهم منه ولكنه لم يستمع إلى هذه النصيحة . . وطالما خرج شاهراً سيفه للدفاع عنه مع أولاده . . ولكن عثمان كان لا يريد أن يريق أي دماء بل إن علياً رضي الله عنه رفض أن يصلي بالناس وصلى وحده وقال للناس : لا أصلي بكم والإمام محصور . .

ولكن السياسة هي السياسة . .

فقد قتل عثمان مظلوماً . . وردد الناس كلمات شاعر الرسول

عليه الصلاة والسلام .. حسان بن ثابت .. وهو يرثى عثمان الشهيد بقوله:

أتركتم غـــزو الدروب ورائكم
وغزوتمونا عنـــد قبـــر محمـــد

فلبئس هـــدى المسلمين هديتم
ولبئس أمـــر الفاجر المتعمد

إلى أن قال:

وكأن أصحـــاب النبى عشية
بدن تذبح عنـــد باب المسجد

أبـــكى أبا عمـــرو لحسن بلائه
أمسى مقيمـــاً فى بقيع الغرقـــد

لقد استشهد عثمان رضى اللّه عنه .. وأخذ التاريخ الإسلامى بعد ذلك يمر بمراحل فى غاية الخطورة .. وتغيرت النظرة إلى الحياة.. فقد بدأ الصراع عاتياً ومريراً بين الأمويين والهاشميين .. وبين علىّ وطلحة والزبير وعائشة.. وانتهت هذه الصراعات بمقتل الإمام علىّ رضى اللّه عنه .. وانتهت بموته الخلافة الراشدة .. وليبدأ عهد جديد .. وحياة جديدة .. ورؤيا جديدة للحياة بانتهاء عهد الخلفاء الراشدين .. هذا العهد العظيم الذى كان امتداداً لأيام رسول اللّه ﷺ .. والذى ارتفعت فيه راية الإسلام إلى كل بقاع

الدنيا . . وانتشرت من خلال حضارة الإسلام التى غزت القلوب والعقول . . ومدت أنوار اليقين تحت كل سماء . . رغم ما فى هذه الفترة الخصبة من التاريخ من المآسى التى راح ضحيتها عمر بن الخطاب . . وعثمان بن عفان . . وعلىٌ بن أبى طالب . . ولكن مآثر هؤلاء العظماء . . الذين قال فيهم الرسول العظيم :

« أصحابى كالنجوم بأيهم اقتديم اهتديتم» . .

ستظل منارة شامخة منيرة تطل أنوارها على كل الأجيال فترى فيهم القدوة الصالحة . . والمثل العليا . . والمبادئ النبيلة . . وكل ما هو عظيم وشريف ونبيل . . رضى اللّه عنهم وأرضاهم . .

* * *

المـــراجع

* صحيح البخارى.
* سيرة ابن هشام.
* طبقات ابن سعد.
* تاريخ الأمم والملوك للطبرى.
* تفسير الطبرى.
* البداية والنهاية لابن كثير.
* الملل والنحل للشهرستانى.
* إتمام الوفاء فى سيرة الخلفاء محمد الخضرى.
* الفتنة الكبرى - الدكتور طه حسين.
* ذو النورين . عثمان بن عفان . عباس محمود العقاد .
* الخليفة المفترى عليه - عثمان بن عفان-
الشيخ محمد الصادق عرجون.
* عثمان بن عفان ذو النورين - لمحمد رضا.
* عثمان وعلىٌ - محمد صبيح.
* رجال حول الرسول - خالد محمد خالد.
* علىٌ بن أبى طالب - عبدالفتاح عبدالمقصود .
* الفتوحات الكبرى : جون باجوت جلوب.
ترجمة وتعليق خيرى حماد .
* خاتم النبيين - الشيخ محمد أبو زهرة.

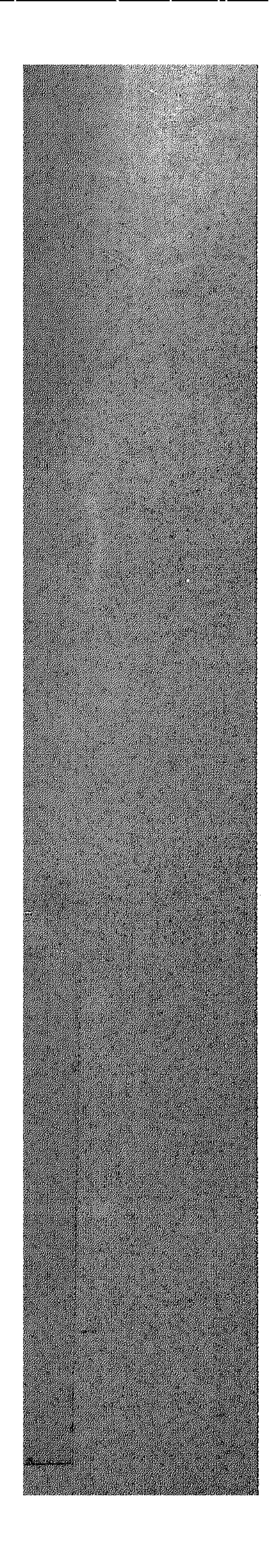


الفهرست

رقم الإيداع
٩٧/١٥٠٦٤
I.S.B.N.
977 - 294 - 044 - 2

طبع آمون
٤ عطفة فيروز - متفرع من ش إسماعيل أباظة - لاظوغلى
تليفون: ٣٥٤٤٥١٧ - ٣٥٤٤٣٥٦






مركز الكتاب للنشر